نفوس متمردة

رواية

د. عبد الرحيم درويش

الطبعة الأولى

الكتاب : نفوس متمردة

المؤلف : عبد الرحيم درويش

تصنيف الكتاب : رواية

تصميم الغلاف : محمد جمال

المقاس : ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ١٩٩٣٦ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : 978 – 977 – 776 – 111 – 6

دار يسطرون

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

طباعة وتوزيع الكتب فى جميع أنحاء العالم

المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت محطة المطبعة

شارع الملك فيصل - الجيزة

جمهورية مصر العربية

٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢ - ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩

مدير الإنتاج : أحمد عبد الحليم

رئيس مجلس الإدارة : عماد سالم

بريد إليكتروني : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

[١]

- صابر متعب مرزوق

قالها المدرس بصوت ينم عن عدم الرضا وعينه على قائمة الطلاب فى يده، اتجهت أنظار التلاميذ إلى صبى ضئيل الجسم تبدو عليه علامات الهدوء والذكاء قبل دخول المدرس الفصل، إلا أن هذا الهدوء شابه شئ من الحذر والقلق .

وقف الصبى فى خجل وقال بصوت لا يكاد يسمع :

- أفندم.

زحفت طلقات عدم الرضا من عين المدرس إليه فقال :

- لم تذاكر جيدًا .

علامات التعجب والاستفهام ترتسم على وجوه التلاميذ. إن صابر هذا أول الفصل دائمًا. ترى ماذا حدث له؟ إنه في الآونة الأخيرة يبدو مضطرباً منطوياً لا يكاد يشارك زملاءه فى لهوهم ومرحهم . تذكر صابر كلمات أمه الحانية التي محت صورة الأستاذ عادل من أمامه: "أريد أن أفتخر بك".

تحسس مكان قبله أمه العطوفة، وحدث نفسه قائلاً: " سامحيني يا أمي والله أنا الأفضل ولكن هناك شيء ما لا أعرفه". ساد الوجوم لحظات وواصل الأستاذ عادل مدرس اللغة العربية حديثه .

كل عيون الزملاء ترثى لحال صابر، ووجه صابر يزداد شحوبًا ويلمس أحد زملائه يده الباردة، ولكن صوت المدرس يمزق الصمت ويعلن:

– أنا مضطر لأن أشطب اسمه من لائحة الشرف بالفصل.

تُسمع بعض الهمهمات، نظرات الزملاء ترثى لصابر، إلا أن هناك زميلاً واحدًا يشعر بالشماتة والظفر معًا. يلتفت صابر لهاتين العينين بكثير من التحدي .

وفجأة ينادى الفراش بصوته المرتفع :

– سيارة فريد بيه يا عادل أفندي .

يضطرب المدرس، يقع القلم من يده، وتقع بعض الأوراق من على مكتبه وينتصب واقفًا من فوره ويقول :

– أهلاً وسهلاً .

ويهم بالسلام والتحية على شخص يرتدى زيًا رسميًا، يقول المدرس :

– أهلاً وسهلاً فريد بيه .

تسرى بعض الهمهمات بين الطلاب. يقف نفس الشخص الذي كان يقذف صابر بنظرات الشماته والظفر ويقول فى تحدٍ :

– سقطت الأسطورة .

تمنى صابر لو ذهب إليه ولكمه إلا أنه شعر بتجمد الدماء في عروقه .

سادت لحظات من النظرات بين الغريمين، صابر بحاله الرث من جهة، وذلك الشخص الذي يشعر بالتشفي والذي تبدو عليه علامات الامتلاء من جهة أخرى. تناسى المدرس كل هذا وبالغ في الترحيب بالضيف قائلاً :

– شرفتنا. زارنا النبي. قيام يا أولاد .

ضحكات فى الفصل، والمدرس لا يفهم سبباً واضحاً لهذه الضحكات .

ضرب المدرس بالعصا على مكتبه وصاح :

– سكوت .

وإذا بالشخص المتشفى الممتلئ يقول :

– سكوت هنصور .

قهقهات التلاميذ ملأت المكان وإذا بالمدرس يرجوهم :

– الهدوء يا جماعة أمام الضيف .

يقاطعه الضيف قائلاً :

– فريد بيه يستأذنك فى أن ينصرف ابنه راشد مبكراً ليوصله معه فى طريقه إلى فيلته .

يندهش المعلم الذي أعتقد أن السائق هو فريد بيه ويقول فى نفسه: "كان علىّ أن أعرف أنه ليس فريد بيه، ولكن الأستاذ علي قال في نفسه:"إنه، أي فريد بيه سيكلمني اليوم".

خرج راشد تشيعه نظرات الكراهية والغضب من كافة التلاميذ، ونظرات التحدي من صابر تلفظه، ونظرات الرجاء من المدرس تودعه بادره المدرس :

– سلم على بابا .

أغلق الباب، اتجه المدرس إلى السبورة وكتب : " بسم الله الرحمن الرحيم "، ولم يكد ينتهي منها إلا وصرخ التلاميذ في فزع :

– أدركنا يا أستاذ !!

التفت المدرس إليهم متسائلاً :

– ما الأمر ؟!

رد أحد التلاميذ بصوت متهدج:

– وقع صابر على الأرض بلا حراك .

وإذا بصوت المدرس يأمر الفراش بصوت تلونه علامات الأسى والإحساس بالذنب :

– هاتوا الطبيب بسرعة .

وساد الهرج الفصل، ونظرات المدرس تعتذر لصابر الذي غاب عن الوعي وازداد وجهه شحوبًا .

[٢]

طبع راشد قبلة على خد أبيه وقال :

– أنا سعيد جداً اليوم يا أبى.

أخرج الأب علبه من جيبه وقال :

– وهذه لعبة جديدة لابني :

ثم استدرك قائلاً :

– ما أخبار الامتحانات ؟

– لا أريد التكلم فى هذا الأمر.

سكت الأب قليلاً، أمر السائق أن يغير اتجاهه ولا يذهب إلى الفيلا فسأله السائق :

– إلى أين نذهب إذا ؟

– إلى المصنع .

تحير الأب فى أمر ابنه ، إنه لا يحب الدراسة، وعليه أن يريه حال العمال وهم يكدحون من أجل اكتساب لقمة العيش ثم يحصلون بعد يوم شاق من العمل على دراهم معدودة .

بادره راشد قائلاً :

– يا أبي أول مرة أشعر فيها بالنصر .

سأله الوالد :

– أي نصر ؟!

رد راشد منتشيًا :

– لم يحصل صابر على أعلى درجة .

ثم رفع رأسه متفاخرًا كأنه بلغ السماء أو هد عكا فاعتقد أن نابليون ينحنى له فرفع رأسه لأعلى .

بادره الأب قائلاً :

– تذكرت لقد حدثتني عن صابر ...

صاح راشد في غضب .

– لا تذكر هذا اللعين يا أبي .

ترك الوالد الجريدة التي كان يقرأها وتساءل :

– لماذا يا بني ؟

أمسك الولد بكف والده وقال :

– أشعر أنه من الرعاع.

سأله الأب قائلاً :

– وباقي الزملاء في الفصل ؟

رد وعلامات العجرفة تزين صوته :

– كلهم رعاع .

تساءل الأب في نفسه قائلاً :"نفس طريقة أمه المتسلطة. لقد أرضعته كراهية الناس وملأت نفسه بالعجرفة وحب السيطرة والتملك. كيف يمكن أن استأصل هذه البذور التي زرعتها أمه علياء البلاوى فيه؟ المهم أرى السكرتيرة أولاً ثم أفكر في تربية الولد" .

سأل راشد قائلاً :

– ولماذا نذهب إلى المصنع يا أبي ؟

– ستعرف عندما نصل .

– إني جائع يا أبي .

– انتظر قليلاً وكن رجلاً .

– أريد أن آكل الآن . هل الرجال لا يأكلون إذا جاعوا ؟!

رد عليه الأب بحزم قائلاً :

– قلت اسكت قليلاً .

صمت الابن مجبرًا، وعلامات وجهه تعبر عن الرفض. واصل السائق عمله وراشد في وجوم ولكن إحساسه بالظفر كان يملأ قلبه وصاح في نفسه: "سأريك يا صابر .. أتعتقد أنك أفضل مني؟ دومًا تقول ماما أننا أسياد الناس".

أما نظرات الأب فكانت شاردة، تراقب الطريق وتتفكر في كيفية جث بذور الكراهية من نفس ابنه، كما كانت تفكر في سكرتيرته الحسناء .

[٣]

– ماذا عملت فى كسوة الشتاء للأولاد ؟

كان السؤال بمثابة قنبلة أفزعت الأستاذ عادل فوقعت سلطانية الشوربة من يده .

أعادت زوجته رتيبة السؤال ثانيًا فقال في غضب :

– الرحمة يا رتيبة .

تساءلت زوجته بغضب وهى على وشك إشعال فتيل أزمة جديدة بينهما :

– الرحمة ؟ أنا الذي أسألك الرحمة بأطفالك. برودة الشتاء على الأبواب تنذر بصقيع شديد. أين رحمتك بأولادك ؟

كاد الموقف بينهما أن ينفجر فقال في غضب متسائلاً :

– وهل أتيتُ بأي ملابس لي ؟ لن أشترى ملابس لي هذا الشتاء .

– إنهم أطفالنا ونحن سنسأل عنهم .

أراد أن يكسر حدة الخلاف فقال في ود :

– يا رتيبة يا حبيبتي إني أعطيك راتبي كاملاً كل شهر .

أخرجت رتيبة طلقة مدفعية فقالت :

– ولكنه لا يكفى والأسعار في ارتفاع مذهل.

كاد جدار السلام بينهما أن يتمزق فقالت هي تحكم حصارها على زوجها في صوت متهدج أقرب للبكاء :

– إني لا أطلب شيئًا لنفسي .

تساءل عادل إن كان يمكنه الاستمرار في المعركة أم الاستسلام. رشف بضع رشفات من شوربة العدس ثم قال في هدوء :

– وماذا أفعل ؟

– تصرف .

– وماذا أفعل إذاً ؟ أخبريني هيا ..

- هذا شأنك .
- هل أنزل وأبيع بطاطا ؟
- هذا شأنك .
- وجدتها سأعمل سائقاً !!
- تفكير جيد .
- ويضحني التلاميذ عندما يروننى ؟
- هذا شأنك .
- سأشتغل راقصة .

ضحكت وقالت في خبث :

- لن تصلح .

ناورت رتيبة وانحنت جانبًا تجرب استعمال سلاح جديد فى المعركة، فقالت في أسى :

- حسرة على وعلى حظي .

تظاهر عادل بمواساتها وقال بعد أن مصمص شفتيه :-

- أعلم . كنت تستحقين زوجًا خيرًا مني .
- كم من الرجال كانوا يودون الزواج بي .
- هذا حظي !!
- بل هذا حظى أنا .

تراجع عادل وحاول أن يكر بعد أن فر فقال :

- لدى حل هائل .

أمسكت بيده ونظرت إليه في رقة وقالت :

- ألحقني به.

ضحك بصوت يمتلئ بالهذر لينهي بوادر الأزمة المحتملة بينهما فقال :

– سأرشحك لرئاسة الوزراء ... لا ... سأرشحك وزيرة للتعليم بشرط أن تصدري قرارًا وزاريًا جديدًا .

ابتسمت ثم عاد الصفاء إلى أجواء سماء كادت أن تكفهر بسحابات غم أسري فقالت :

– سأرفع مرتبات المدرسين إلى ثلاثة أضعاف .

وأسفرت المعركة عن ضحكات هادئة ولمسات حانية وأطفئت الأنوار معلنة عن هدنة جديدة بينما كان الأطفال يتكورون في سريرهم من البرد .

[٤]

– أفق يا صابر.

يفتح عينيه شيئًا فشيئًا. يرى زميلته نور. فتقول له:

– ماذا حدث ؟

– لا أدري . أين الأستاذ عادل ؟

تفهمه أنه قد سقط مغشيًا عليه فيسألها في لهفة:

– وهل رآني راشد وأنا أقع على الأرض ؟

– لا .. لم تقع إلا بعد أن خرج .

سارا في براءة إلى منزلهما، فلقد كانت تعيش معه في نفس المنزل وكانت زميلته في نفس الفصل. لم تكن على نفس القدر من تفوقه، سألته عن إبراهيم فأخبرها أنه بالجامعة ثم قال :

– أرجوك ألا تخبري أمي بما حدث.

نظر إليها فوجد علامات الأنوثة تقترب منها رويدًا رويدًا ... لوحت إليه مودعة وانصرفت، أما هو فقرر ألا يعود إلى منزله. ماذا يقول لأمه ؟ أيقول لها: خيبت أملك في ؟

لا .. كانت نور تودعه وإذا بصورة إبراهيم الأخ الأكبر لصابر تبرق في ذهنها "تبتسم" يولي صابر المنزل ظهره، ويلوح لنور مودعًا، فيجدها تبتسم .

إلا أنه يفاجأ بأمه مبتسمة مرحبة تأخذه في حضنها وتقدم إليه قطعة حلوى. هل يخبرها بما حدث، إنه يتمنى أن يدخل الجامعة مثل أخيه .

لا تقوى عيناه على النظر إلى عينيها .

تنحدر الدمعات على خده ويقول :

– سامحيني يا أمي .

تمسك بيده وتقول في فزع :

– ما الأمر ؟!

– لم أكن الأول اليوم .

– ولا يهمك . نتحدث في هذا الموضوع بعد الطعام .

– لا أستحق الطعام . لن أدخل الجامعة مثل إبراهيم .

– هل تقتل نفسك لأنك لست الأول ؟

– لقد وعدتك يا أمي .

– لا تقلق فلكل حصان كبوة . إبراهيم أخوك سيذاكر لك .

– أحبك يا أمي .

– وأنت وأخوك إبراهيم أكثر ما أحبه في الحياة. إني أعيش لكما .

ألصقته بصدرها وطبعت قبلات كثيرة على خديه ووجنتيه ولكن دمعات متدفقة سقطت من عينيها وبللت وجهها فسارعت بمسحها حتى لا يراها صابر، إلا أنه رآها بقلبه وأحس بها فهطلت الدموع من عينيه أيضًا، وشاركتهما السماء أيضًا، فلقد هطلت الأمطار مدرارًا معلنة عن شتاء قاسٍ مبكر ..

[٥]

– إني جائع.

– قلت أصبر وكن رجلاً .

– وهل الرجال لا يأكلون إذا جاعوا ؟

كرر راشد السؤال أكثر من مرة، فرد أبوه :

- انتظر قليلاً .

- إني لا أصبر على الجوع .

- وماذا ستفعل وشهر رمضان على الأبواب ؟

دخل فريد بيه مكتبه وصاح كعادته في السكرتيرة وعيناه تشهدان بجمالها :

- أين البوسته ؟ هل أنتظر كل يوم أكثر من ساعة ؟

وطلب من ساعيه الخاص أن يأتي بطعام لراشد الذي يلح عليه في طلب الغداء وأن يأخذه إلى أي مكان نظراً لانشغاله .

طرقت السكرتيرة الباب ودخلت إلى فريد بيه وعيناها مغرورقتان بالدموع فسألها :

- ولماذا البكاء ؟

- البوسته جاهزة يا أفندم .

كانت جميلة العينين، سوداء الشعر، ذات قوام ممشوق، وجمال طبيعي تشوهه بعض المساحيق. فتحت فمها المصبوغ بحمرة قاسية لا يملك من يراه إلا أن يرفع الراية البيضاء استسلاماً أمام ثغر دقيق، إلا أنه يفاجأ بلون أخضر وضعته بدقة أسفل حاجبيها، كما أنه سيفاجأ بنحر شديد البياض لا يضاهي بياضه إلا اللبن، فيضع سلاحه وتنهار مقاومته أغلقت فمها، فتمنى فريد بيه أن ينهال عليه تقبيلاً، مدت يدها لتسلم له ملف البوسته، فخطفه من يدها، كما لو كان ينتزع قبله من شفتيها المكتنزتين، ثم طالت يده أطراف أصابعها، فسحبت يدها بسرعة، وأغضت بصرها فزادها الحياء جمالاً ودلالاً، وقالت :"فريد بيه!".

وفى هذه اللحظة دخل راشد، فاعتدل أبوه في جلسته وصاح فى السكرتيرة قائلاً وهو يتصنع الجدية:

- ألا زلت تقفين ؟

استدارت السكرتيرة واتجهت نحو الباب، وثبت فريد بيه ناظريه على مؤخرتها، كانت تسير بدلال ورشاقة تخلب لبه، ود لو قام فالتصق بها، ولكن ما كانت لأمنيته أن تتحقق في ظل وجود ابنه ومهابة يود أن يبقيها قائمة في مصنعه .

تحدث راشد كثيرًا عن كراهيته لصابر، وتحدث صمت أبيه عن هيامه بالسكرتيرة، وكان الابن يتكلم كثيرًا والأب يفكر كثيرًا .

وفجأة رفع فريد السماعة وقال بصوت ودود لسكرتيرته :

– مها . تعالى بسرعة .

ثم صارت لهجته أكثر نعومه فقال :

– تعالى ولا تغضبي .

كان قلبه ينبض بشدة وكانت علامات كثيرة تنطق من وجهه بلغة لا يفهمها راشد .

[٦]

– يا صابر.

وصل نداء الجد إلى حفيده بعد أن كرره ثلاث مرات، ولكن الصبي لم يسمعه بسبب انشغاله مع أمه في المطبخ. لم يكن صابر كعادته عندما يصل إلى منزله يرص كتبه على الأرض ويهم بعمل واجباته ويردد لجده وأمه ما حفظه في المدرسة، فلقد أصابه الإحباط الذي تعرض له بعدم الرغبة فى المذاكرة، ولم تسأله الأم عن سبب تغيير عادته فلقد فهمت من دموعه ما حدث .

وما أن وصل صوت الجد إلى أذن صابر إلا وقال في عجلة :

– نعم يا جدي. انتظر قليلاً . هل تشم رائحة العدس الذي نطبخه ؟

لم يكن بوسع الجد سوى الانتظار، ولكنه صاح بصوت حنون :

– ستفوتنا صلاة العصر .

ترك صابر المطبخ واتجه لجده وقال في رجاء :

– سأتوضأ بسرعة .

– لن انتظرك إلا خمس دقائق .

رد الصبي في مودة وحب بالغين :

– بل أقل من هذا .

سمعت الأم خرير ماء الوضوء، فرفعت رأسها إلى، السماء ترجو من الله أن يحفظ ولديها قائلة :

إلهي بحق جاهك وقدر نبيك محمد تبارك لي في صابر وأخيه إبراهيم أنت نعم المولى ونعم النصير بارك في صابر وإبراهيم.

ولما انتهى صابر من الوضوء رفع صوته بالشهادتين اختلط صوته بصوت الجد الذي أقام الصلاة، فأطفأت الأم الموقد وهرعت إلى الوضوء لتلحق بصلاة الجماعة، وخيم الإيمان على الأسرة التي كان ينقصها الأب الذي يعمل بكد وتتساقط قطرات العرق من جبينه. وكان طائر الإيمان يعم الأسرة بجناحيه ، فلقد استأذن الأب من العمل دقائق حتى لا تفوته الصلاة، وصلى إمامًا ببعض رفقاء العمل وسط هدير الآلات، كما كان ولده إبراهيم يصلى في جنبات الكلية وسط هدير المظاهرات وتجمعات الشرطة .

[٧]

جرس التليفون يرن ولا أحد يجيب .

ثم يرن مرة ثانية.

ترفع منى عادل السماعة وتقول :

- ثانية واحدة سأوقظ أبى.

تنادى بصوت مرتفع :

- يا أبى تليفون. الأستاذ ذكى

يقفز الأستاذ عادل من سريره ويخرج، ويمسك بالسماعة ويقول:

- أهلاً .
- ومتى أبلغك بهذا ؟
- متى سنبدأ ؟
- وهل أذهب إليه في الفيلا ؟
- هل أبلغك بالثمن الذي سآخذه في كل حصة ؟
- شكرًا . أحسن أساتذة في العالم أساتذة الفيزياء .
- وسأردها لك إن شاء الله . مع السلامة.

انفرجت أسارير عادل، وقبل ابنته، وذهب إلى زوجته، تحسس كتفها ثم قال :

- انهضي .

تململت زوجته وقالت :

- دعني أنام قليلاً .

قال بصوت ينم عن الاستعطاف :

- لقد فرجت .

ثم ردد بلسان عربي فصيح :

- ضاقت ولم استحكمت حلقاتها فرجت. وكنت أظن ألا تفرج.

تنبهت زوجته وقالت مستغربه عندما رقص زوجها ؟

- ماذا بك يا رجل ؟ ماذا تفعل يا مدرس اللغة العربية ؟!

- سأعطى درساً خصوصيًا .

- يعنى مشكلة كسوة الأولاد الشتوية ستحل ؟

- تقريبًا .

- لا أدرى سببًا لسعادتك هذه ؟

- إنه ابن فريد بيه .

- طظ في فريد بيه.

- يا ست لا تقولي هذا.

- وألف طز في فريد بيه وأمثال فريد بيه.

- لم القباحة ؟

- لا أدرى ولكني أكره الأغنياء . نشرب شوربة العدس بسببهم .

كانت صادقة فيما تقول، ولكنها لم تكن تدرى لماذا ؟ نظر إليها زوجها في تعجب وقال :

- وهل لنا بركة إلا هم ؟

- قلت إني أكره الأغنياء وأشعر أنهم السبب فيما نعانيه .

تركها عادل وخرج يذاكر مع أولاده ، وكان يحلم بدخول فيلا فريد بيه وخاطب نفسه قائلاً :"والله وستضحك لك الدنيا يا عدول".

ولكن لم تدم سعادته طويلاً فلقد قفزت صورة صابر في ذهنه، وتذكر حالته وهو لا يتحرك، فشعر أنه السبب وقرر أن يشد من أزره في الغد، ولكنه لم يكن يعلم أن هذا القرار سيكون بداية العقبات التي تعترض طريقه مع فريد بيه وابنه المدلل .

[٨]

نغمات البيانو تنطلق بشكل متسارع.

ولكن علامات عدم الرضا تنطلق من وجه مس نادية، تقول في عتاب:

- لا يا راشد .

يقول راشد في عجرفة:

- لقد كنت سعيدة بي يا مس المرة الماضية .

تغض بصرها، لقد كانت المرة الماضية أول الشهر وكانت قد رتبت نفسها على أن تنفق ما تأخذه من فريد بيه على ضروريات الزواج المرتقب. إن عريسها يصر على أن تدفع مثله في الزواج ويتردد في ذهنها قوله :"ستصير حياتنا شركة. أنت النصف وأنا النصف" كان قطار الزواج قد قارب على أن يفوتها فرضخت للأمر الواقع وقبلت هذا العريس على مضض على الرغم من بخله وقبحه .

أخرجها صوت راشد من بئر عميق من التفكير فقال :

- ألا ترين أنى أتحسن ؟

- لا

- وطريقة عزفي اليوم ؟

- ليست جيدة.

يبدو أنها لم تحسن العزف على وتر قلب خطيبها، أحيانًا تشعر أنه بدون قلب أو مشاعر. دائمًا يصر على مبدأ النصف بالنصف. ذات مرة أنكرت عليه بخله فقال :

- الحرص مهم في الحياة ، والاقتصاد نصف المعيشة.

وهذا الحرص لا يبدو أبدًا عندما تدعوه أمها إلى تناول الطعام في بيتهم . إنه أكول نلهم !!

ذات مرة سألته :

- أين سنقضى شهر العسل ؟

نظر إليها في تعجب وقال :

- ياللكارثه !! أحذرك من التفكير في هذا .

رمقته باحتقار، سيحدثها عن مبادئه وعن ضرورة وضع القرش على القرش وأن المستقبل غير مضمون، وأنه لا داعي لإنفاق المال في غير موضعه، وأن حرب الخليج ستؤثر على اقتصاد المنطقة عزفت مس نادية بأناملها الرقيقة، وكان عزفاً حزينًا، وما أن انتهت إلا واستمعت إلى تصفيق فريد بيه فشكرته، نهضت فسلمت عليه، احتفظ بيدها في يده فترة أطول من المعتاد، فضغطت على شفتها السفلى بأسنانها العلوية وغضت الطرف حياءً. وسحبت يدها برقة .

بادرها فريد بيه قائلاً :

- عظيمة يا مس نادية .

كان يقارن بين مس نادية ومها سكرتيرته ، وتمنى لو جمع بين الاثنين في مكان واحد ، وأخذ قبلة من هذه، وأتبعها بقبلة من تلك .

همت مس نادية بالانصراف، وكعادته رمق فريد بيه مؤخرتها وغاص فى تخيلاته، إلا أن صوت زوجته أخرجه من تخيلاته، وصفع جميع أحلامه، فقد نادته من حجرتها قائلة :

- تعال ضروري في حجرتي يا فريد .

تلكأ وهو يحاول أن يستجمع أشلاء خيالاته التي تجمع بين مس نادية ومها، إلا أن زوجته صرخت بصوت آمر مرتفع :

- بسرعة. أنت ماشٍ على قشر بيض وتخشى أن تكسره ؟

أسرع فى اتجاهه نحو غرفة زوجته وهو يقول :

- استر يارب يا منجى الجحش من الوحش.

وابتسم في نفسه وقال بهدوء :

- حاضر ..

أنا قادم يا أم قويق .. يا أم أربعة وأربعين.

[٩]

نشر الليل أجنحته على المدينة.

كانت نور تنظر من النافذة وترى القمر بدراً ساطعاً وكان صوت جد صابر ينتشر في أجواز الفضاء وهو يرتل القرآن بصوت عذب :

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ كانت تشعر أن صوت الجد وهو يتلو القرآن يخترق نفسها وروحها ويلمس قلبها .

كان الجد يتلو أولاً ثم يردد صابر وراءه. كانت الآيات تسكب في نفسها قطرات الإيمان، فتنظر إلى القمر، وتقول:

- الله ...

وصل صوت المؤذن لصلاة العشاء إلى عنان السماء. تغلق النافذة، ولكنها قبل أن تغفلها تجد صابر متعلق بيد جده وهما يذهبان إلى اتجاه المسجد، إنها لم تر إبراهيم اليوم. تتعجب. وما أن تخرج من حجرتها إلا وتجد أمها قد صبغت وجهها بأصباغ كثيرة، لدرجة أنها لم تكن لتعرفها، ابتسمت في وجهها وقالت:

- ستخرجي يا أمي كالعادة ؟

- نعم . الطعام موجود إذا جعتِ. ذاكري ..

- كنت أود .....

تلعثمت نور، فقالت أمها متسائلة :

- كنت تودين أن أبقى معك ؟

- لا
- ماذا كنت تريدين إذاً ؟
- أن نصلى العشاء سويا.
- بدا على وجه الأم التعجب، وقالت :
- أنا لا أصلى .

فقدت الأم إيمانها بعد موت زوجها، حتى آخر ذرة في إيمانها ماتت بعد أن اضطرت إلى السير في طريق الغواية، كانت مضطرة إلى أن تسلك نفس دروب الشيطان . نظرت إلى عيني ابنتها في إشفاق وقالت :

- عندما أعود سأصلى معك .
- أنت تعودين متأخرة .
- سأحاول العودة مبكراً الليلة .
- وماذا تعملين يا أمي؟

كادت الأم أن تفقد أعصابها فصاحت :

- أسئلتك كثيرة ومملة .

اقتربت نور من أمها وسألتها :

- هل يمكن أن أطلب منك شيئاً ؟
- أنت تأمريني وأنا أنفذ .

اقتربت نور أكثر في حنان وقالت والرائحة التي تضعها أمها تزكم أنفها .

- أريد منك وعدًا بألا تغضبي .
- لن أغضب يا نور، ولكن بسرعة لا تعطليني .
- أريدك أن تغطى شعرك وتلبسي فستاناً أطول.

خفضت الأم بصرها حياءً وقالت:

- تريدينني أن ارتدى الحجاب ؟

- نعم .

وأخذت نور تحدث أمها عن مدرس التربية الدينية، وعن فريضة الحجاب .

نور تتحدث والأم تفكر. إنها تشعر بالتضاؤل أمام ابنتها، فمن المفترض أن تعلم الأم ابنتها، والآن تقوم ابنتها بهذا الدور. وانتبهت الأم إلى صوت ابنتها تقول :

- إن طريق الجنة سهل .

ردت الأم بغضب .

- وهل يعنى هذا أنى سأدخل النار؟

صفعت الأم ابنتها بقوة على وجهها، وقالت في غضب:

- ألم يعلمك مدرس التربية الدينية بر الوالدين والإحسان إليهما ؟ ألم يحدثك عن فضل الأم ؟ إنه مدرس متطرف !! ألم يقل لك إن الجنة تحت أقدام الأمهات ؟! وقفت نور في هدوء وانحنت تقبل يد أمها وقالت :

- متأسفة .

كانت دمعات نور بمثابة طلقة مزقت غضب الأم وتعنتها، احتضنت ابنتها قائلة :

- وأنا متأسفة .

شعرت الأم بدقات قلب ابنتها تتسارع، فرمت حقيبة يدها وأسقطت باروكة الشعر من على رأسها ، فبدا شعرها مفحماً بالسواد والنعومة وقالت :

- لن أخرج اليوم .

تساءلت نور:

- وعملك ؟

- لن أعمل اليوم .

ثم احتضنتها الأم بكل حنان، ولكنها تشعر بنبضات قلب ابنتها تتزايد ، فقالت لابنتها:

- وسنصلى العشاء سويًا .

قبلتها ابنتها، ولكن بدت الأم قلقة من تزايد نبضات قلب نور. ولم يذهب هذا القلق إلا وصوت مؤذن المسجد يقيم صلاة العشاء، وكان صوته ينطلق في خشوع وهدوء ...

[١٠]

- الحمد لله

قالها والد صابر بعد أن تناول العشاء مع أسرته الصغيرة التي ينقصها إبراهيم ثم جرع شربه من الماء وتمتم :

الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا .

ابتعد عن الطبلية التي يتناولون عليها الطعام . واتجه بالحديث إلى صابر قائلاً :

- ما أخبار المذاكرة ؟ هل يذاكر معك إبراهيم أم أن الجامعة تشغله ؟

أطرق صابر، فقد علم أن هذا السؤال يؤذن بنهاية العشاء وأن عليه أن يحضر كتبه حتى يراجع ويذاكر مع أبيه. فبادره صابر قائلاً :

- إني متعب وأريد أن أنام .
- لا .. أنا متعب اسمي متعب .
- أقصد أنى لا أستطيع المذاكرة

ابتسم الجد وابتسمت الأم لطرافة الفكاهة، وتساءلت الأم:"إن زوجي مريح جدًا، لا أدرى لماذا أطلق عليه حماها هذا الاسم".

رد الجد مجيبًا على تساؤلها :

- كان شقيًا عندما حملت به أمه، وكان يرفسها وهو في بطنها، فاختارت له هذا الاسم، ولم أكن موافقاً ولكنها أصرت .

قال والد صابر :

- إذا كنت لا تريد أن تذاكر اليوم، سأخبر إبراهيم.

قاطعه صابر وقال:

- أعلم ما تريد أن تقوله. ثانيه واحدة سأحضر الكتب.

غاب صابر قليلاً في حجرته كان يراجع ورقة الامتحان. خرج ووجهه متورد بسعادة غامرة وصاح بسعادة بالغة، لقد أخطأ الأستاذ عادل في جمع درجات الامتحان إنه من حقي أن أحصل على تسع عشرة درجة وليس تسع درجات. الحمد لله . لقد نسى أن يضيف درجة سؤالين . سأله الأب :

- تسع عشرة درجة من عشرين ؟
- نعم وسأكون بهذا الأول .. الحمد لله

احتضن أمه وجده، بدت عليه السعادة، ولكنها لم تستمر إذ سأله الأب:

- وما الذي جعلك تنقص درجة كاملة؟ أين ضاعت الدرجة العشرين.

كان الأب يريد أن يصير ابنه نموذجًا، غضب الجد وقال :

- لا تؤنبه ودعه يفرح .

أعادت السعادة الهدوء إلى صابر ، كما عادت إليه ثقته في نفسه وشغفه بالدراسة فقال:

- أعدك ألا أفرط في درجة واحدة بعد هذا .

قبله أبوه قائلاً :

- وهكذا تصير ولدى حقًا .

اتجه صابر نحو جده وسأله :

- وهل كان أبى مثلي متفوقاً في المدرسة ؟
- نعم
- ولماذا لا يعمل الآن مهندسًا أو طبيبًا ؟
- إنها قصة طويلة .

أغمض الجد عينيه، بدا عليه التأثر والحزن، ترك المكان، ولم ينجح في أن يدارى بعض دموعه، ولكنه قال :

- أبوك كان أفضل تلميذ في مدرسته ولكنه قدره ألا يتم تعليمه. لقد أصر على ترك المدرسة ليساعدني في تزويج عماتك وقف متعب

ليهدئ من روع أبيه وقبل رأسه وجبينه وفي هذه اللحظة عاد إبراهيم من الجامعة محتضنًا كتبه، نظر إليها الأب وقال :

- الحمد لله ... الخيرة فيما اختاره الله .

لفظ الجد كلماته فى حسرة وقال :

- لقد كنت أنا السبب في عدم إكمالك لتعليمك.

قال متعب في حنان .

- لا يا أبى إنه قدري ولقد كنت خير أب
- وأنت كنت ولازلت أفضل ابن .

احتضن متعب والده، تأثرت أم صابر، وكادت أن تبكى، في حين أعاد صابر جمع درجات أسئلة الامتحان أكثر من مرة. ليؤكد لنفسه ثقة كاد يفقدها، ثم نطقت إشارات التحدي من عينيه، سيعلنها غداً لكل الفصل .. إنه الأول .. وسيظل الأول .. سأريك يا راشد الكلب .

[١١]

خرج عم حسين الفراش من غرفة المدرسين بعد أن وضع كوبين من الشاي أمام الأستاذ عادل مدرس اللغة العربية والأستاذ ذكى مدرس الفيزياء، ومع أول رشفة شاى شكر الأستاذ عادل زميله لأنه كان السبب في أول درس خصوصي سيعطيه، فلقد كان الأستاذ عادل من أنصار رفض إعطاء الدروس الخصوصية، وكان يتزعم هذه الجبهة الأستاذ راضى فضل .

أكد الأستاذ ذكى لزميله أنه لا داعي للشكر ثم قال في هدوء :

- الحمد لله أنك عقلت. كفانا كلاماً فارغاً عن المبادئ والقيم. وسنرى كم سيتبقى من أنصار للأستاذ راضى.

كان ذكى يتحدث بكل تحدٍ وكأنه يعلن سعادته بانضمام عادل إلى جبهة مؤيدي الدروس الخصوصية. رشف عادل رشفة أخرى من كوب الشاي، وإذا بالباب يفتح ويدخل منه الأستاذ راضى فضل، فيرفع الأستاذ ذكى صوته ويبتسم قائلاً :

- ليتنا تذكرنا خمسة جنيهات أو خمسين دولارًا .

بدا على وجه الأستاذ راضى الغضب وقال :

- أنا أفضل من خمسين ألف جنيه. أنا ممثل القيم والمبادئ في هذا العالم الحقير .

نظر الأستاذ ذكى إلى منظر زميله راضى وقال :

- نعم .. وهذه ثيابك الرثة والحذاء المتهرئ الذي تلبسه يشهد على ذلك . وعلى كل فلقد خسرت اليوم نصيرًا لك وسينفض عنك كل من حولك من أصحاب المبادئ . أخونا الأستاذ عادل سيعطى درساً خصوصيًا

بدا الحزن على وجه راضى، وقال هو يتجه إلى زميله عادل :

- بعت نفسك يا أستاذ اللغة العربية من أجل حفنة من الجنيهات . فكر كم ستخسر عندما ينظر لك التلميذ أو والده نظرة احتقار لأنه يعلم أنه قد اشتراك . أين المبادئ ؟!

أثرت كلمات راضى قليلاً فيه ولكنه رد في غضب :

- وهل ستطعم المبادئ أطفالي وتكسوهم ؟

أشاح راضى بغضب وقال وكأنه يلقى محاضرة :

- لا ... تجوع الحرة ولا تأكل بثديها. يرضيني أن أهان وأن أجوع ولكن لا أبيع مبادئي .

وأخذ فى إلقاء خطبة عصماء عن أهمية المبدأ، وكان الأستاذ على والأستاذ ذكى قد خرجا بدون أن يشعر، ولكنه لم يحس بخروجهما إلا عندما دخل الفراش الغرفة وقال:

- سلامة عقلك يا أستاذ راضى . إلى من تتحدث ؟

كاد راضى أن يضحك ولكنه قال في هدوء :

- معك حق إنني أخاطب أمواتًا .

ثم ردد قول الشاعر :

أسمعت إذ ناديت حيًا

ولكن لا حياة لمن تنادى

وما كاد يفرغ من ترديد البيت ومحاولة شرحه للفراش إلا وقد كان جرس الحصة يرن معلنًا بدء حصة جديدة، فحمل دفاتره وكتبه واتجه إلى فصله مودعًا حجرة المدرسين ومشيعًا ميئًا جديدًا من أنصاره الذين يتساقطون يوماً بعد يوم .

[١٢]

وبعيدًا عن جو المدرسة والمبادئ كانت أم نور جمالات تعابث بعض الرجال في أحد الملاهي وكانت عيون الرجال تلتهم وجبه شهيه من لحم إحدى الراقصات التي تتلوى كحية رقطاء وتنثني على أنغام موسيقى صاخبة داعرة تطلقها فرقة موسيقية مكونة من أنصاف السكارى وأشباه الرجال .

وعلى الراقصة ترمى عشرات الجنيهات، بل إن بعض الرجال الذين يسيل لعابهم يقف مترنحًا ثم يلقى بمئات الجنيهات على رأس الراقصة .

تبتسم جمالات وعندما تجد بعض الرجال يقلدون هذا الفعل وتُلقى عشرات المئات من الجنيهات تحت أقدام الراقصة، تبتسم لأنها تعلم أن هذه الأموال يتم جمعها ثم تعد وتعطى فى آخر الليلة لصاحب الملهى، كما تعلم أن هذا المبلغ ثابت دائماً ويتم إلقاؤه تحت قدم راقصة قد تتغير كل يوم .

تلمح رجلاً يبدو عليه الهدوء وهو يدخل الملهى ولكنه يحمل حقيبة منتفخة، تقوم وتجلس أمامه وتحييه قائلة :

– مساء الهنا والفل يا باشا. هاف نايت أم فل نايت .

كانت تعنى أن تسأله هل ستبيت معه نصف الليلة أم الليلة بأكملها؟ فهي لا تحب أن تجبر أحدًا لأن الزبون دائمًا على حق .

لم يرد عليها، لمحت اثنان من الرجال الأقوياء ، يدخلان إلى الملهى ويبحثان بناظريهما عن رجل ما، وما أن تقع أعينهما على الرجل الجالس أمامها إلا وينقضان عليه كما ينقض النسر على فريسته الغافلة، يقيدانه فلا يقوى على الحراك، تقف جمالات وتقول :

– أهكذا عيني عينك تأخذان الرجل منى.

لطمها أحد الرجلين بقوة فجلست لا تلوى على شيء، وسأل الرجل الآخر :

- هل تريدين شيئاً آخر؟

ألجمتها المفاجأة عندما وجدت نفس الرجل الذي لطمها يخرج مطواة ويغرزها في قلب الرجل الجالس أمامها فكتمت صرختها بداخلها، ثم أطفئت أنوار الملهى .

ساد الذعر فى المكان، أفاقت المرأة وهى تجد نفسها خارج الملهى وفى يدها الحقيبة المنتفخة. تحسستها وكل ذرة في جسدها ترتعش.

ثم استقلت التاكسي إلى منزلها، وهى لا تصدق أنها لا زالت حية. وأنها حصلت على الحقيبة التي كانت تتمنى أن تأخذها ولكنها لا تدرى كيف حدث هذا. ولما فتحت الحقيبة ألجمتها المفاجأة، لقد كانت مكتظة بالمال استلقت على فراشها واحتضنت طفلتها بقوة، ولكنها لازالت تشعر بالفزع والذعر وقبل أن تغيب في النوم قامت وأغلقت باب الشقة ووضعت خلفه مجموعة من الكراسي، ثم تحسست وجهها والذي لازالت آثار اللطمة متعلقة به ثم هرعت إلى حضن طفلتها التي كانت تنام في براءة الملائكة .

[١٣]

- يا سلام يا حماتي !! ألذ لحم أكلته في حياتي.

خرجت كلمات نصيف من فمه مقترنة برذاذ أصاب مس نادية بالقرف، فردت عليه ومشاعر الكراهية تبدو من وجهها :

- لم أكن أعلم أنك تحب اللحم. كلما نخرج تشترى لنا ساندوتشات الفول.

كانت السمنة أهم ما يميز نصيف فلقد كان تقريبًا بلا رقبة، فإذا رآه شخص لأول وهله فإنه يعتقد أنه كتلة لحمية هائلة، كما كان يترجرج في سيره، وكانت نادية تشعر أنه يحشر كرشه في البنطلون ويجر مؤخرته وهو يسير، وكانت تتخيله كحمار يجر عربة كارو خلفه.

حاولت حماته أن تكسر هذا الجو المشحون بالكراهية فقالت:

- بالهنا والشفا يا بنى .

ودت نظرات نادية أن تقول له:"حار ونار في كرشك" ربتت الحماة على كتفه فلم تجد عظمة واحدة، شحم ودهن مكتنزان في كل قطعة من جسد.

وبعد أن أكل خطيب ابنتها شرع يمصمص عظامًا كانت أمامه ثم قال :

- نعمة ربنا يجب أن نحافظ عليها. نحن لا نرمى العظم .

قبلت نادية الخطبة مجبرة، فوالداها يريدان الاطمئنان عليها، ودت نادية لو صرخت فيه معلنة عن رفضها إياه. تحاول أن تتمالك أعصابها، ولكنها لا تستطيع. نظرت إلى عينيه الضيقتين وقالت :

- عندما كنا نختار الصالون في الأسبوع الماضي دعوتنا للغداء على فول وذكرت أنك نباتي لا تحب اللحوم .

بدا عليه الغضب ثم قال :

- نعم أنا نباتي .
- لا ... نباتي عندما تخرج النقود من جيبك وحيواني عندما تُدعى إلى الطعام ...

توجه بالحديث إلى حماته قائلاً :

- هل يعجبك ما تقوله ناديه يا ماما ؟

نظرت الأم إلى ابنتها بعتاب وقالت :

- اهدئي يا نادية

كادت نادية أن تبكى من الغيظ والغضب وقالت في استنكار :

- أخشى يا ماما أن يذهب ليقضى شهر العسل بمفرده من أجل ترشيد الإنفاق .

ضحك العريس السمين وقال :

- نكته ظريفة ... دمك خفيف .. والله فكرة.

ضحك حتى دمعت عيناه، واصلت نادية سخريتها قائلة :

- انظري يا أمي .... إنه من كثرة بخله يدمع من عين واحدة.

أخذ العريس يضحك ويضرب كفا بكف حتى سقط على الأرض. فكان كجثة خنزير هامدة. أخذت الأم بيده لتجلسه على الكرسي فبلغ منها الجهد مداه ، وناديه تقول :

- انه محتاج إلى ونش ليرفعه يا ماما .

لم تتمالك الأم نفسها من الضحك، فانخرطت مع ابنتها في ضحك استمر لدقائق، ولم يقطع ضحكها إلا صوت عريس الغفلة.

- أين الحلو يا حماتي ؟!

[١٤]

دخل الأستاذ عادل فيلا فريد بيه والذهول يتلاعب به . كان يسير وكأنه في حلم . فطريقه ممهد والزهور على يمينه ويساره، ولما رآه البواب هب واقفاً ودعاه للدخول، ولما علم أنها أول حصة له ، سار معه إلى أن وصلا إلى حمام سباحة تزينه الرقة، تمنى لو أنه يستطيع أن يخلع ملابسه وينزل للغوص فيه، إلا أن برودة الشتاء منعته من التفكير الزائد في هذا الموضوع، ولكنه تخيل أن أهل هذه الفيلا ينزلون فيها في الصيف .

أخذ يتساءل في نفسه: "ترى من أين حصلوا على هذه الأموال؟ إن زوجتي تكره الأغنياء، ليتها تكون معي الآن لترى هذا العز". وطرأ في باله سؤال آخر ، هل يعطى راشد الأسئلة التي تأتى في الامتحان؟ إنه يجب أن يجعل راشد وفريد بيه يسعدان. يتساءل كيف سيكون حال صابر؟ إن المنافسة بينهما لن تكون شريفة. آه .. معك حق يا أستاذ راضى. هل يعنى هذا أنني أبيع نفسي وأبيع مبادئ؟ يا سيدي وما ذنبي؟ ليس هذا خطأ تسببت فيه. وماذا أفعل حتى أعيش بمرتب الحكومة. كان الأستاذ ذكى دائماً يقول: تبا لمرتب الحكومة من تغطى به صار عريانا ومن عاش عليه مات جوعانا. وكيف سيتعامل معي؟ إنه كثير الهذر في الفصل وهو لا يأخذ درسا عندي، ماذا سيكون الحال لو أعطيته درسًا في بيته؟! يبدو أن كلام الأستاذ راضى صواب، ولكن ... مرت عليه هذه اللحظات كسنوات. بدا عليه التراجع وقال للبواب:

- انتظر لحظة من فضلك .

- ما الأمر؟

- نسيت شيئاً مهما في البيت .

استدار نحو الباب، خطا خطوة وربما ثلاث خطوات ولكنه تراجع عندما سمع صوت راشد يناديه :

- أستاذ عدولة .

التفت إليه وهو يود أن يصرخ فيه ليمنعه، إلا أنه اكتفى بأن يقول في سره:" أهلاً وسهلاً .. بدأنا من الآن .. اسمي الأستاذ عادل يا بن الناس . على كل أنا لازالت على البر يمكن أن أتراجع" ولكن راشد لم يمهله فناداه بسخرية :

- أستاذ عدوله ... دخل سنة أولى .

- اتجه الأستاذ عادل نحو الباب ليخرج من الفيلا إلا أنه لم يخرج، فلقد استمع إلى أجمل صوت أنثوي في حياته، كان هذا الصوت يعاتب راشد ويقول:

- عيب ... انزل سلم على أستاذك .

استدار الأستاذ عادل فرأى فتاة تقترب من الخامسة عشر ربيعًا، يضئ وجهها كالبدر، وتلمع عيناها ببريق الشباب، ويأسر جمالها قلبه، ويكاد قلبه أن ينخلع من مكانه .

هل يفقد هيبته أمام هذه الفتاة، استجمع أطراف بشجاعته وقال :

- خسارة يا راشد .. هل علمتك هذا في الفصل ؟

أين احترام الأستاذ ؟ على كل حال ، لن أعطيك درساً . مع السلامة .

جرت الفتاه إليه، وتأسفت وطلبت من راشد أن يعتذر لأستاذه ففعل، ولكن الأستاذ عادل صاح:

- لن أعطيك درسًا .

- واتجه نحو الباب لا يلوى على شيء، كان يود أن تصير عيناه في مؤخرة رأسه ليرى هذه الفتاة، ولكنه يشعر بالسعادة عندما استرق السمع إلى صوتها وهى تعاتب راشد قائلة :

- هل يعجبك هذا؟ ها هو ذا قد مشى غاضبًا كادت قدماه أن تتراجع إلى أسر جمال هذه الفتاة، لكنه سمع صدى صوت الشاعر يقول بداخله :

إن المعـــلم والطبيـــب كليهما

لن يحسنا النصح إذا هما لم يكرما

ود لو استطاع أن يتزود بنظرة من هذه الحسناء وصاح بغضب: "أين أنت يا شوقي؟ ماذا كنت ستفعل لو رايتها ؟ أشعر أنى لم أكن حياً قبلها، أنى أقسم أن هذه أجمل نساء الأرض كلهم ، إني على استعداد أن ألاقى الموت مقابل نظرة أخرى من عينيها" .

[١٥]

فتح الجد الشباك ليستنشق هواء الفجر، كان يبسمل ويحوقل ويتمتم بدعواته، ويحمد الله على أن وهبه نعمة الحياة في يوم جديد .

كان نور الصبح يبزغ شيئاً فشيئاً، وكانت زقزقة العصافير تتعالى شيئًا فشيئًا، استيقظ صابر وقال لجده في غضب :

- لماذا لم توقظني لصلاة الفجر ؟

- حسبت أنك تريد أن تنام قليلاً .

- لا يا جدى .. سيغضب منى إبراهيم

كان إبراهيم الأخ الأكبر يحب الاستيقاظ مبكرًا والنوم مبكرًا إلا أن مراجعة إبراهيم محاضراته استغرقته، فطلب من صابر أن يوقظه مبكرًا .

كان الأخوان على علاقة وطيدة ببعضهما رغم فارق السن بينهما. وكانت بذور طاعة صابر لأخيه تثمر حباً يانعا بينهما، وكانت رقة إبراهيم تجاه أخيه تثمر احترامًا، حتى ترعرعت أشجار الود والعطف والمحبة في حديقة أسرة تتخذ المحبة والاحترام للكبير والعطف على الصغير شعارًا لها .

يتحدث إبراهيم مع أخيه عن حياة الجامعة، وعن المظاهرات المزمع أن يسير فيها اليوم، اتجه صابر إلى سرير أخيه وقال :

- قم .

ولما لم يستيقظ إبراهيم قال صابر :

- لقد دبر الأمريكان مكيدة .

نهض إبراهيم واقفاً وقال :

- ماذا .. ماذا فعلوا ؟ هل اقتحموا بغداد ؟.

فرك إبراهيم عينيه وقال :

- ماذا حدث يا صابر ؟

رد صابر ببراءة :

- كانوا السبب في تأخرنا في النوم إلى الآن.

عاتب إبراهيم جده الذي اعتذر بأنه كان يعلم بتأخر إبراهيم في مراجعة دروسه فأراد أن يتركه نائماً ولو قليلاً ، ولكن إبراهيم قال :

- يا جدي لقد تأخرت كثيرًا .
- يا بنى محاضراتك من الساعة الثامنة.
- لا يا جدي اليوم اعتصام .. وهناك مظاهرات عارمة.
- أخشى عليك يا ولدى .
- لا تقل لأمي أي شيء. ولا لأبى .. فإنهما يخافان علىَّ.
- وأنا يا إبراهيم أخاف عليك جدًا .
- ولكنك يا جدي مؤمن بعدالة موقفي . هل نسكت على ضرب العراق .. سأقول لك يا جدي بعض الشعارات :"يا من تضرب في بغداد غدًا تضرب برقة وسوريا ولبنان"، "كفاية كفاية يا جبان خيبت أمل الأمريكان" واسمع هذه "يا عزيز يا عزيز خذ الأمريكان والإنجليز" .
- اخفض صوتك حتى لا يسمعك أحد. عليك أن تعدني بأن تحافظ على نفسك .
- حاضر يا جدي .. مع السلامة .
- أتنزل قبل أن تصلى.
- معك حق ... سأصلى.

وبعد دقائق خرج إبراهيم من البيت تشيعه نظرات الجد وتدعو له بالسلامة وبرعاية الله، ولم تكن نظرات الجد فحسب هي التي تتابع خطوات إبراهيم ، فلقد كانت نور تنظر إلى خطوات إبراهيم المتسارعة في كل إعجاب وإكبار ...

[١٦]

يخفت صوت الهمسات عندما يدخل الأستاذ عادل الفصل، ويقف التلاميذ جميعًا في بداية الحصة لتحية الأستاذ إلا أن أحد التلاميذ لم يقف، فصرخ فيه المعلم :

- قف يا راشد.

رفض راشد الوقوف، أمر المعلم الطلاب أن يجلسوا ثم قال مخاطبًا صابر:

- أنا آسف على ما حدث لك . أرجو أن تكون بخير اليوم.

وقف صابر بكل أدب واتجهت عيناه نحو المعلم وقال :

- أتسمح لي أن أتكلم ؟

أصدر راشد صوتاً مزعجاً ثم قال بصوت خافت ساخر:"عيني عليك يا مؤدب" ود الأستاذ عادل لو لطم هذا التلميذ ولكنه تمالك أعصابه وقال في نفسه: "كل هذا والوزارة تمنع الضرب في المدارس" وقال بهدوء وبحزم في آن واحد :

- تعال إلى السبورة وارفع يديك إلى أعلى .

لم يجد راشد بدا من التنفيذ، تظاهر بالشجاعة وبعدم الاكتراث ورفع يديه. وأكمل صابر حديثه :

- هناك خطأ في جمع الدرجات. لقد تأكدت أني أستأهل الحصول على تسع عشرة درجة .

أخذ المدرس الورقة وراجعها وقال :

- نعم ولذا فأنا مدين لك باعتذارين .
- عفواً يا أستاذ وجل من لا يسهو .

اقترب منه المعلم واحتضنه وقبله وقال :

أنا أعتذر مرة أخرى. دعونا نبدأ في درس اليوم.

كانت نظرات الفخر والانتصار تطل مرة أخرى من عيني صابر، وكانت هذه النظرات مغلفة بثقة استعادها إلى ذاته، كان صابر يود أن ينظر إلى عيني راشد التي كانت عنيدة وغائبة. بدأ المدرس في الشرح والتلاميذ يستمعون، بينما يواصل راشد عناده ويصر على التحدي ورفع يديه إلى أعلى ووجهه إلى السبورة ، ولكن جرس نهاية الحصة أسعفه ، فأنزل يديه واتجه إلى المعلم بعين التحدي ، وبعين الحقد إلى صابر الذي لم يكترث لنظراته .

اتجه صابر إلى نور قائلاً :

- سمعت جدي يتلو القرآن اليوم وقرأ :﴿ قل موتوا بغيظكم﴾ .

كان يحدث نور ونظراته تتجه إلى راشد الذي كاد الحقد أن يقتله . اقترب راشد . من صابر وقال :

- هل تظن أنك أفضل منى ؟

لم يتحرك لسان صابر للرد عليه، ولكن تولت نظرات عينيه الإجابة . أمسك راشد بخناق صابر، أبعدت نور يده وقالت :

- لا تتشاجرا في الفصل .

تملك الغضب صابر الذي لم يرد أن يبدو ضعيفاً أمام نور، فأخذ راشد على غرة وضربه لكمة أوقعته على الأرض، وإذا بضجيج التلاميذ بتصاعد ويتزايد صفيرهم، وبعضهم يصيح:" قم يا سوسو قم".

ينظر صابر بعين الظفر إلى نور ويود أن يقول لها:"ها أنا ذا رجلك وبطلك".

وإذا بمشرف الدور يدخل الفصل مسرعًا ويأمر كلاً من صابر وراشد باتباعه إلى مكتب المدير .

[١٧]

- هيا يا نور أسرعي.

نادت الأم ابنتها التي بالغت في اهتمامها بشعرها، وكانت الأم قد أزمعت أن تنزل لزيارة والدة إبراهيم، ولم تكن الزيارة هدفها الوحيد فلقد كانت تود أن تسأل الجد إسماعيل عن أمر من أمور الدين. ارتدت

نور حذاءها الجديد الذي اشترته الأم لها مؤخرًا، ولما رأت الأم ابنتها في أبهى صورة أخذتها في حضنها وقالت :

- بسم الله ما شاء الله ... عروسة كالقمر .

وتمنت لو رأتها في ليلة عرسها .

رحبت الست هنية أم إبراهيم بهما وبالغت في إكرامهما، وقدمت والدة نور بعض المكسرات والزبيب إلى مضيفتها استعدادًا لشهر رمضان .

كانت نظرات نور زائغة وكأنها تبحث عن شخص ما ولما لم تجد من تبحث عنه نظرت إلى صورة معلقة على الحائط المقابل لها. لقد كانت صورة إبراهيم . وإذا بالست هنية تتذكر أن إبراهيم قد تأخر الليلة وأمس على غير عادته. فإذا بوالدة نور تقول :

- شباب جامعة . قد يكون مع إحدى زميلاته.

نظرت نور إلى أمها في غضب وقالت :

- الجامعة ليست مكاناً للقاء الزميلات يا ماما ومن المؤكد أنه بالمكتبة. فكثيرًا ما كان يحدثني عن حبه للمذاكرة وحبه للمكتبة. أكيد أنه يذاكر مع أصحابه.

سعدت الست هنية لذكر ابنها وقالت :

- بسم الله ما شاء الله. إنه رجل وزعيم . لقد اختاروه ليكون أمين اتحاد الطلاب .

ردت جمالات والدة نور:

- ربنا يحفظه لك ويبارك لك في صابر أيضًا .

خرج صابر ليسلم على الضيوف. لم تكترث نور لحضوره، أشار إليها أن تتبعه وقال لها في همس :

- إياك أن تخبري أمي بما حدث اليوم.

ردت بغضب وقالت وعيناها تلتهم صورة إبراهيم :

- وماذا ستفعل في الأسبوع الذي ستفصل فيه من المدرسة ؟

كانا يتحدثان بصوت خافت كالهمس، خرج الجد وسلم على نور وأمها وإذا بجمالات تسأله :

- إحدى صديقاتي طلبت منى أن أسألك ماذا تفعل بمبلغ من المال وجدته في الطريق.

أحس الجد أنه لا يخلو من فائدة فقال لها :

- هذه تسمى في الشرع باللقطة . وحكمها أن يخبر من وجدها الناس بشأنها فمن يتعرف عليها تصير ملكه .

تساءلت جمالات في لهفة وقالت :

- وإذا لم يتعرف عليها أحد ولم يسأل عنها أحد ؟

أجاب في هدوء :

- تصير ملكًا له .

انفرجت أسارير جمالات وشكرت الجد وهمت بالانصراف إلا أنها اقتربت من نور وسألتها :

- في أي شيء تتحدثان ؟

ارتبكت نور وقالت :

- لا شيء .. صابر فصل من المدرسة لمدة أسبوع.

صرخت الأم، وتساءلت عن السبب، وفى نفس اللحظة دخل والد صابر وتساءل عن السبب فقال صابر والخوف يتملكه :

- ضربت أحد زملائي .

كان الأب مجهداً من العمل وسأله:

- وهل يذهب الناس إلى المدرسة من أجل التعليم أم من أجل المشاجرة ؟

زال الخوف قليلاً من نفس صابر وقال :

- إن راشد فريد قليل الأدب وكان من الضروري أن أؤدبه .

تساءل الأب في دهشة :

- "راشد فريد" ما اسمه بالكامل .

- راشد فريد الهلباوي

تراجع الأب وجلس متهالكاً على الكرسي وقال :

- يا للمصيبة !!

بدا الوجوم على الجميع وإذا بالأب يقول :

- ابن فريد الهلباوي مدير المصنع الذي أعمل فيه.

كانت نظرات الانكسار تملأ عينيه، وتصب في عين صابر الذي طرق إلى الأرض وساد الصمت لحظات .

تتزايد الطرقات على الباب فتكسر حاجز الصمت ويفتح الباب فتصرخ الأم، فلقد كانت الدماء تسيل من وجه ابنها إبراهيم الذي كان زملاؤه يحملونه على أعناقهم، فزع الأب وألجمته المفاجأة، كادت نور أن تصرخ، فجرت تتحسس قلبه وحمدت الله على أنه لازال حيًا، وساد الصمت مرة ثانية، لم يجرؤ أي صوت على أن يرتفع إلا صوت الجد وهو يقول في رجاء :

- اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه .

[١٨]

دكت المصيبتان أسرة متعب، كما دكت إصابات إبراهيم نفس نور، تماماً كما كانت الطائرات تدك بغداد والمدن العراقية. تهدمت البيوت والمساجد كما تهدم السلام الذي كان يحيط بالأسرة التي يحيمها دعاء الجد .

وكانت هناك مصيبة أخرى تدك بيت فريد بيه، ولكنها مصيبة من نوع آخر .

فلم يكد يخرج أحد الموظفين من حجرة علياء هانم إلا وارتفع صراخها ليبلغ أقصى حد لارتفاع الطائرات المعتدية .

- يا فريد بيه.

صرخت عدة مرات ولم يرد فريد بيه فلقد كان مشغولاً بالتحدث مع ابنه راشد الذي أخبره بما حدث مع صابر غريمه المعتاد. خرجت علياء من حجرتها وسارت والغضب شرار ينطلق من عينها، لمحها

فريد بيه وشعر بها وهى تسير كأنها فى خطوات عسكرية وتقود كتيبة بأكملها خلفها ..

لا يدرى لماذا أحس بالتضاؤل أمام خطواتها. صاح في ابنه وكأنه يستعد لمعركة حامية الوطيس :

- أدخل حجرتك ونكمل فيما بعد ....

ارتفع صراخ زوجته :

- الله الله يا فريد بيه !!

كان هدير صوتها يقتلع أية بادرة أمل في مقاومة وشيكة يستعد لها الزوج زائغ العينين.

اقتربت منه وقالت :

- لم أكن أعلم أنى مغفلة إلى هذا الحد .

اقترب منها أكثر وحاول أن يلمس كتفها وقال في برود :

- ما بك يا حبيبتي ؟

صرخت في وجهه متسائلة :

- حبيبتك ؟! أحبك برص.

قال وهو يضغط على أضراسه ليتمالك غضبه :

- ما الأمر ؟!

- تقوم بدور روميو في المصنع ؟

ابتسم ابتسامة مريرة وصاح :

- من أبلغك هذا الكلام الفارغ ؟

نظرت إليه في استنكار وقالت :

- عيوني موجودة في كل مكان .

- تتجسسين علىَّ ؟

- وهل أتركك تلهو مع من تشاء ؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ .

- أنت أخر من تتكلم عن القرآن يا نذل .
- احفظي لسانك .
- احفظ أدبك وأرع مشاعر زوجتك .

ارتفع صوتهما فإذا بتغريد ابنتهما تخرج من حجرتها وتسأل عن الأمر وتطلب منهما تهدئه الأمور وتقول :

- ماذا سيقول الخدم عنا ؟!

تحدث الأب بهدوء قائلاً :

- هدئي أمك بنت الذوات

نظرت الأم لابنتها قائلة:

- أبوك ..

قاطعها فريد قائلاً :

- كفاك .. إياك أن تنطقي بأي شيء بدون دليل.
- لدى دليل.
- وما هو ؟
- كنت أعلم أنه عينك بالمصنع أكيد سيد عثمان.

طلبت رقمه على التليفون المحمول. فجاء في خلال دقائق وقالت له :

- تحدث وأخبر البيه بما لديك.

أشاح الأب بوجهه وقال :

- لا يصح هذا أمام ابنتنا .
- لا ... أريدك أن تفضح أمامها .
- أي فضيحة تتكلمين عنها ؟

- خرجت مع السكرتيرة الخميس الماضي.
- وما العيب في هذا .

كادت المرأة أن تجن لهدوئه وقال متوجهة لابنتها :

- أخبري والدك ما العيب في هذا.

ساد الصمت لحظات . نظرت علياء إلى زوجها في احتقار، كادت نظراتها أن تقتله، أما هو فكان يرد عليها بنظرات تؤكد أنها المذنبة، فلولاها ولولا معاملتها الجافة ما بحث عن امرأة أخرى .

خرج سيد عثمان بعد أن دست علياء في يده بعض المال، وإذا بتغريد تبكي وتنتحب، فيحاول الأب أن يهدئ من روعها قائلاً :

- أمك غيورة جدًا .

تلكزه علياء بكوعها وتقول متوجهة للفتاة :

- أبوك زائغ العينين .

يرد الأب في غضب :

- وما العيب في أن أخرج مع سكرتيرتي ؟ لماذا يعتقد الناس أن أي علاقة بين رجل وامرأة تكون آثمة.

ثم وقف وأقسم بأغلظ الإيمان أنه كان يتحدث معها في أمر المؤتمر الصحفي والذي كان من المقرر له أن يعقد الأسبوع القادم . كان يقسم ويعيد القسم مرات ومرات وعيناه تشهدان أنه كاذب ولكن دموع تغريد كانت صادقة لأنها كانت تسح من عينيها ببراءة تشهد على مدى التوتر الذي وصلت إليه علاقة والديها .

[١٩]

كانت مها تتقلب في سريرها فرحة مسرورة وكانت تتردد كلمات فريد بيه في أذنيها: "سامحيني على معاملتي الفظة القاسية معك يجب أن أتصرف معك هكذا. كنت أخشى أن تفضحني نظرات عيوني أمام الموظفين. إن العاشق ضعيف تنطق عيونه بالحب ويذاع اسم محبوبته على جبينه إذا تكلم وإذا سكت . كنت أرفع صوتي وأنا أناديك وأبدو آمراً ناهياً حتى أبعد شبهة الاعتقاد أنى أحبك لكنني لم أتمالك نفسي. أنى لا أستطيع المعيشة بدونك. كنت أنتظر اللحظات التي تأتيني فيها

بالبوستة حتى أستظل من هجير حياتي الملئ بالحرب وأستريح بين أهدابك وفى ظل عينيك. إن حبك واحة حياتي. لقد كانت حياتي ظلاماً دامسا، وتكفى نظرة واحدة من عينيك حتى يتحول هذا الظلام إلى نور ساطع يضئ حياتي" .

تنهدت واحتضنت وسادتها وقالت لنفسها :"أين أنت يا ماما حتى تشهدين حبي وتباركينه؟ رحمك الله" .

كنت أود أن أريك هذا العقد الرائع الذي أعطاه لي فريد كهدية محبة كما قال لي " نظرت إلى العقد وقبلته".

ثم عاودتها أحلامها فقالت:" وما المانع في أن أتزوج فريد بيه ؟ السن ؟ لا يهم وماذا أفعل بشاب لا يجد لقمة تكفينا أو شقة تضمنا. وما الذي يجعل شاباً يتقدم للزواج من سكرتيرة لم تحصل سوى على دبلوم تجارة بالكاد؟ إني أشعر بنظرات الرجال تفترسني وتغريني، ولكن هل أتزوج حسين العجلاتي الذي ينظر إلى بكل حب أم ناصر بائع الفول؟ صحيح أنه حصل على مؤهل عال ولكنه لا يعمل به. إنه يبيع الفول على عربه يجرها بنفسه" .

واصلت نظراتها إلى عقدها وتساءلت: "وماذا سأفعل إن كان فريد بيه يتسلى بي؟ لا .. إنه صادق فيما يقوله إن نظرات الحب التي كانت تشع من عينيه لا يمكن أن تكون كاذبة. إن لمسات يده الحانية المحبة عندما كنت معه في النادي أكبر دليل على حبه".

"سيتزوجني وستتغير حياتي التعسة وسأصير سيدة مجتمع وزوجه فريد بيه".

تخيلت نفسها معه في حفل زواج أسطوري. ووالدها يحتضنها أمام الجميع في سعادة بالغة.

طرقات والدها على الباب قطعت كل تخيلاتها. ردت قائلة:

- لن أتغدى يا أبي . إني شبعانة .

دخل أبوها ونظر إليها في حنان وقال :

- لا أطلبك للغداء
- ما الأمر إذاً ؟!
- ألم تسمعي طرقات الباب ؟

- لم أسمع طرقاتك يابابا
- ليست طرقاتي بل طرقات كانت على باب الشقة.

نظرت إليه في تساؤل. قال والسعادة تملؤه :

- إن ناصر في الصالون .

تساءلت بقرف :

- ناصر بياع الفول ؟!
- تقصدين الأستاذ ناصر خريج كلية التجارة .

هزت رأسها بغير اكتراث وقالت :

- يبدو أنه يريدك في أمر ما .
- لا .. أنه لا يريدني .
- يمكن أن تكون رغبته اقتراض بعض المال منك .
- لا إنه يريد أحداً غيري .

تعجبت مها وخمنت أنه قد يكون وصل به الجنون إلى حد أن يطلب يدها من أبيها فتساءلت :

- هل صحيح ما أخمنه يا أبي ؟
- وماذا تخمنين يا روح بابا ؟

غطاها الحياء فأطرقت صامته فقال لها الأب بكل سعادة :

- إنه يطلب يدك .

سكتت الفتاة للمرة الثانية ثم نظرت طويلاً إلى العقد الذي أعطاها إياه فريد بيه .

[٢٠]

قال راشد لأخته تغريد عندما رآها تبكى :

- لماذا تبكين ؟
- بابا وماما يتشاجران كالعادة .
- إن هذا ليس جديداً علينا .

كانت الفتاة تود أن تعيش فى بيت يظله الحب بين أبوين متفاهمين. وعندما قالت لأخيها هذا قال لها :

- كثرة قراءتك للروايات ستضيع عقلك.

كانت تؤمن بالحب وقدرته على فعل الأعاجيب . سألت راشد قائلة :

- هل تعتقد أن أبانا يحب ماما ؟

بدا عليه عدم الأكتراث وقال لها :

- تفكرين في أمور تافهة .

غضبت وقالت :

- أترك عظائم الأمور لك .

ثم قالت فى عجلة :

- أغضبت أستاذك وتركك.

لم يرد عليها فقالت له فى عتاب :

- لماذا لم ترد علىَّ ؟
- كلها أمور تافهة أعرف كيف أسترده. سأكلم الأستاذ ذكى مدرس الفيزياء يرفع له ثمن الحصة وسيأتي .
- هل معك رقم تليفونه ؟
- نعم.
- أعطني إياه وسأعتذر له .
- ليست هذه هي المشكلة .
- وما المشكلة إذا؟
- لقد فصلت من المدرسة لمدة أسبوع.

وقعت كلماته عليها كصاعقة ، ولكنها أخذت تفكر فى العلاقة المتفسخة بين أبويها. إنها تحلم بحياة الحب. غابت عن التفكير عندما سألها أخوها :

- هل تعتقدين أن أمي ستأتي معي إلى المدرسة لتكلم المدير ؟

- ولماذا لا تطلب هذا من أبيك .
- أشعر أنه يتعاطف مع الرعاع.
- تقصد زملاءك ؟
- نعم.
- عليك أن تعاملهم معاملة طيبة.
- وأحبهم وأوزع عليهم من مصروفي ؟
- لا ....
- أنت لا تعرفي صابر. إنه حقير. يظن أنه أفضل منى مع أنه جربوع حقير. إن ملابسه رثه. لا أدرى ماذا جنيت حتى يصير هذا القذر زميلاً لي .. إنه يحصل على درجات أعلى مني. تعسًا لمجانية التعليم كما تقول أمي.
- إنك لا تذاكر مثله .
- هذه أمور تافهة .

إنه لا يهتم بأي شيء وكل الأمور عنده تافهة. قامت تغريد وذهبت إلى حجرتها ، واتجهت نحو التليفون ...

[٢١]

- الشاي يا حماتي

كان نصيف يطلب الشاي بعد وجبة ملأت كرشه المكتنز . وكأنه فى مقهى. كانت كل علامات القرف تطل من وجه مس نادية كان نصيف يتحاشى هذه النظرات لأنه كان يشعر بها وكأنها لسعات تلدغه . نادت نادية أمها قائلة :

- وواحد شيشيه يا ماما .

وتوجهت إلى نصيف متسائلة :

- هل تجلس في مقهى ؟

لم يرد عليها وواصل سكوته فقالت له والكراهية تملؤها :

- أنا ..

قاطعها قائلاً :

- أعلم أنك تحبينني . من الطبيعي ألا تقاومي جمال شاب مثلي .

صرخت، جاءت الأم على عجل حاملة صينية الشاي وتساءلت:

- ما بكم يا جماعة ؟!

سكتت نادية والغيظ يفترسها. سألت الأم خطيب ابنتها :

- ما رأيك فى الشاي ؟

- رائع ولكن أريد ملعقة سكر .

قامت الأم نحو المطبخ ، اقترب نصيف من خطيبته وقال فى ود ظاهر :

- نادية .. الشاي رائع ولا ينقصه السكر. ولكني أريد.

اقترب منها وحاول أن يقبلها، كانت تشعر بالغثيان، لم تكن تطيق النظر إليه.

سألته متصنعه المودة :

- هل تريد قبلة ؟

- نعم .. ألف قبلة .

- موافقة بشرط .أن تغمض عينيك .

نفذ الشرط مستسلمًا .

كانت الأم فى المطبخ ففوجئت بصوت صفعة مليئة بالقوة فوقع السكر من يدها وخرجت إلى ابنتها وفوجئت بنصيف يقول لها :

- يا سلام . ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب .

صرخت نادية من الغيظ وهى تقول :

- ماذا افعل فى رجل ليس لديه إحساس ...

أغيثوني يا عالم .

اتجه نصيف نحو حماته وقال :

- انظري ماذا فعل حبي لها يا حماتي. إن عشرات مثلها لا يجدن عريسًا مثلي.

حاولت الأم أن تلطف الجو قائلة :

- ربنا يسعدكم ويهنيكم .

صرخت نادية بصوت أعلى ، وقال نصيف فى هدوء :

- لا يمكن أن تقاوم شابًا مثلي. إنها محظوظة يا حماتي. إني رجل يقدر المرأة ويقدس الحياة الزوجية .

[٢٢]

كانت نور تنظر من النافذة ويستغرقها التفكير. قطع تفكيرها وجود صابر فى الشباك فلوحت إليه بيدها غمرته السعادة فلوح لها. كانت نظراته تؤكد سعادته برؤيتها. كان يراها كل يوم فى الفصل أما اليوم فلم يرها بسبب عدم ذهابه إلى المدرسة تبادلاً النظرات، فأجابها بلهفة عندما سألته:

- ما أخبار إبراهيم؟

كان يتوقع أن تخبره بالدروس التي أخذوها والواجبات المطلوبة. أحس بالصدمة وقال :

- الحمد لله بخير .

تنفست الصعداء وشعرت بالراحة وغاب التفكير عن ناظريها دخلت حجرتها بدون مقدمات وبدون أن تخبره . تساءل :

"ألم يكن من الأفضل أن أطلب منها أن تخبرني بما أخذوه من دروس ؟"

ربت الجد على كتفه وتساءل فى حنان ؟

- من الذي يكلمك ؟

- نور.

أغض بصره فى خجل وقال :

- كانت تسأل عن إبراهيم

لم يكن الجد يحس بما كان يشعر به صابر .

لم يكن أحد بالصالة أخذ صابر قلمًا وورقة وكتب :

"إنـي غضـبان جـداً كنـت أود أن تكلمنـي . إذا كانـت لا تريـد أن تكلمني فإن هذا من حقها. كنت أريد أن أنظر إلـى عينيهـا . إنـي أريـد أن أراها دائماً .

أريد أن أراها كل يوم .

إن قلبي يخفق بشدة عندما أراها.

لا أريد إلا أن أراها.

لقد سألت عن أخي ولو تسأل عنى.

ليتني ذهبت إلى المدرسة اليوم.

كنـت سـأجلس علـى الـدرج الـذي بجانبهـا وكنـت سأسـرق بعـض النظرات إليها .

نور .. سأكتب اسمك عشرات المرات . سأرسمك كالشمس وكل شعاع يخرج منها سيشير إليك وينطق اسمك ولكني سأغار منه لأنني أنا الذي يريد أن ينطق اسمك. أنا فقط .سأنتظر ... فى الشباك كل يوم حتى أراك وإن لم تخرجي إلى الشباك .. سأراك حتى وأنت مع والدتك داخل شقتك ... سأراك "

خرجت الست هنية أم إبراهيم من حجرتها مسرعة عندما سمعت إبراهيم يطلب كوباً من الماء. ارتبك صابر وأخفى الورقة خلف ظهره. لم تلاحظ الأم شيئاً، ودخلت مسرعة إلى سرير إبراهيم. فانتهز صابر الفرصـة وقطـع الورقـة التـي كتبهـا بمشـاعرة لأنـه لـن يجـرؤ علـى أن يعطيها إلى نور .. ثم وضع وجهه بين كفيه وأخذ يبكى ...

[٢٣]

صرخت زوجه الأستاذ عادل فى وجهة قائلة :

- هذا يعنى أنك طيرت الدرس من يديك.
- كنت أشعر بالإهانة.
- والآن تشعر بالكرامة ؟

- نعم.

ودت نظرات عينها أن تخبره أن الكرامة والشرف لا يطعمان إلا الخبز الحاف فى هذه الأيام . تذكر كلمات الأستاذ راضى . ردت زوجته قائلة :

- معك حق ألم أقل لك إني أكره الأغنياء ولأول مرة يشعر بأن زوجته تحبه وترثى له، قالت من وراء قلبها :
- ولا يهمك. الشتاء عمره قصير. يمكن للأولاد أن يتحملوا إلى نهاية هذا الشتاء.
- ليس هذا كلامك من قبل .
- كرامتك قبل كل شيء.

شعر بأنه يحبها وتمنى لو قبل يديها ولثم شفتيها، فسألها :

- هل تحبيني حقاً وتحافظين على كرامتي ؟
- نعم وهل لدى فى الدنيا غيرك .
- أنا لست بمصدق لما يجرى . إنني أسعد زوج فى العالم إذًا .

نظر إليها بحب بالغ، وسألها عن أحاديثها السابقة معه، وكيف كانت تشعره بالتضاؤل عندما لا يستطيع تلبية رغباتها، فأخبرته بأنها ليست طلباتها وإنما طلبات البيت والأولاد، وأنها لا تطلب شيئاً إلا أن يحفظه الله لها .

غمرت السعادة روحه لحظات، دخلت إليه زوجته فاحتضنها تحسس شعرها إلا أنه تذكر خصلات الشعر فاحمة السواد التي كان يطيرها الهواء على رأس أجمل فتاة رآها فى فيلا فريد بيه، تذكر نظرات عينها عندما رأى عيني زوجته لم تزد اللحظات التي شعر فيها بالحب والسعادة عن دقائق معدودة فقد رن جرس الهاتف، ولم يجب أحد الأولاد، فهرعت الزوجة لترد، وعادت قائلة :

- تليفون لك .
- من ؟
- لا أدرى .

قام من على فراشه وقلبه ينبض بشده وصورة أجمل أنثى رآها فى فيلا فريد بيه تطارده وتجذب عينيه إليها بكل قوة. رفع السماعة وتساءل. من يتحدث، فأتاه نفس الصوت الناعم الرقيق الذي سمعه فى فيلا فريد بيه يقول :

- تغريد فريد

ود لو أنه يستطيع أن يرقص. إنه لمن حسن الحظ أن تتصل هي ثانية وأن يستمع إلى صوتها وأن تكون هي البادئة فى الحديث. تصنع الغضب وقال متظاهراً بالضيق :

- أفندم . لن أعطى درساً لراشد .

أتاه صوتها من خلال الهاتف وانساب فى أذنه بكل رقة :

- إنه لا يعرف مصلحته . إنه متهور . أنا آسفة بالنيابة عنه سأقنعة أن يتصل بك ويعتذر .

كانت آخر ذرة فى كرامته قد شعرت بالرضا ولكنه قاوم وقال :

- لا .. قلت لا .
- وإذا طلبت منك أنا تأتى من أجل خاطري ؟

ود لو قبل التليفون إنه يعتقد أن هذا كثير عليه. تمالك مشاعره وقال :

- سأفكر في الأمر .
- إني أريدك فى موضوع هام .
- موضوع راشد ؟
- لا ... موضوع آخر. أرجوك من أجلى تعالى .

اليوم يشعر أنه تائه غائص فى عالم من السعادة والخدر الذي تملك نفسه قالت زوجته :

- ما كسر يمكن إصلاحه .
- نعم.
- هل ستذهب إليهم ؟

- نعم.

كانت نظرات عدم الارتياح تتقافز من عينيها. رضخت للأمر، دخلا غرفتها، وسألها عن سبب الذهول الذي أصابها فقالت :

- لا أشعر بالارتياح نحو هذا الموضوع.
- لماذا ؟
- قلبي يحدثني بعدم الارتياح..

لم يكمل الاستماع إلى حديثها فلقد كان صوت تغريد لا يزال يتردد في أذنه ثم يتكرر ثانية كماء رقراق ينهال فى حلقه فيشرب ولكنه يزداد عطشا ...

[٢٤]

- اليوم إضراب.

وقعت هذه العبارة فى أذن متعب فأحدثت دوياً كدوى القنابل فى العراق والتي كان يستمع إليها فى نشرات الأخبار، فصاح :

- ولماذا الإضراب ؟

أخبره رفاقه بأن المصنع فى طريقه إلى الخصخصة وأنه سيتم الاستغناء عنهم .

وما الذي أخذناه من الرفض والمعارضة. ابني مصاب فى البيت نتيجة المظاهرات التي قامت في الجامعة. تحدث وكأن الأمر لا يعنيه:

- وماذا سيفعل الاضراب ؟ هل سيؤدى إلى نتيجة ؟

المظاهرات فى كل أنحاء العالم ضد الغزو والأجنبي للعراق ومع ذلك تكال الضربات فى كل أنحا ء العراق ويموت المئات بل الآلاف من الأبرياء هناك كل يوم وتهدم كل البنى التحتية وتغتال حضارة عمرها آلاف السنوات

كانت الرؤوس تطأطئ موافقة على كلامه .

شعر أنه يود أن يواصل كلامه فقام بهم خطيباً وقال بصوت غلبه الحماسة :

- وماذا فعلت المظاهرات هنا ؟ إن ابني نائم على فراشه نتيجة صدامه مع رجال الأمن . هل يعنى الرفض أن نقتل بعضنا ويستفيد الآخرون ؟ أفضل الحل السلمي .

رد أحد المعارضين لكلامه قائلاً :

- عندما نضرب عن العمل سيخسر المصنع وسيعلمون مدى قوتنا ومدى احتياجهم إلينا . نحن نكسب قوتنا بالكاد ونجد بالكاد ما يسد رمقنا وهم يحصلون على الآلاف بل على الملايين لأنهم يستغلوننا. نحن نتعب وهم لا يتعبون، نزرع وهم يجنون، وإذا مرضنا فهم لا يعالجون، هم يرون أنهم على صواب دوماً ونحن على خطأ كبير. الإضراب هو الحل .

تعالت الشعارات حتى بلغت عنان السماء. جلس متعب فى هدوء ، وانفض العمال خلف المتحدث الذي ألقى خطبته النارية وأشعل جذوة الحماس فى نفوس زملائه. ولما خرجوا جميعاً من هذا المكان، تركوا أحد الرجال .

لم يره أحد . كان مختبأ خلف الباب يدون ويكتب ويسجل ما سمعه ... لقد كان هذا الرجل هو سيد عثمان .

[٢٥]

أقنعت نور والدتها بضرورة زيارة الست هنية أم إبراهيم ، أحضرت جمالات السبت وملأته بالفاكهة وبعض العصائر وأكياس السكر، واستعدا لزيارة الجيران لمواساتهم فى إصابة إبراهيم قالت جمالات لابنتها :

- فرصة أن تبلغي صابر بما تأخذونه فى المدرسة وأن تساعديه فى شرح ما فاته من دروس .

لم تكثرت الفتاة بمقولة أمها ولكنها قالت فى لهفة :

- وفرصة أن نطمئن على إبراهيم .

خرجا من باب الشقة ، فوجدا فتاتين فى غاية الجمال، اعتقدت نور أنهما من فتيات الإعلانات. كانت الأصباغ تلطخ وجهيهما سمعت أحداهما تقول للأخرى:

- معقول ؟! هل يعيش إبراهيم فى هذه المنطقة الخربة.

ردت الأخرى قائلة :

- والله يا لمياء ما كان لنا أن نأتي لزيارته.
- معك حق ولكنه أمين اتحاد الطلاب.
- كان يجب أن نأتي ببعض من زملائنا من الرجال .
- رفضوا جميعاً خوفاً من عيون رجال الأمن.

لما رأت الفتاتان نور وأمها سألت أحداهما :

- أين شقة إبراهيم متعب ؟

شعرت نور بالغيظ والغضب معًا فى نفس الوقت وقالت بسرعة:

- لا يوجد أحد بهذا الاسم هنا .

لكن الست جمالات ردت فى هدوء :

- ماذا تريدان ؟
- شقة إبراهيم متعب.
- هذه هي .

وأشارت إلى الشقة ثم طرقت الباب عدة مرات، ولما سألت جمالات ابنتها عن سبب كذبها على الفتاتين لم ترد، ولكنها بادرت الفتاتين قائلة :

- ومن أنتما ولماذا تريدانه ؟

وضعت إحدى الفتاتين يدها على شعر نور وقالت :

- نحن من زملائه فى الجامعة

سارعت نور بإلقاء يد الفتاة من فوق رأسها ولوت بوزها وقالت فى غضب :

- بنات آخر زمن ... يزرن الشباب فى البيوت !!

أحست جمالات أن هذه العبارة أكبر من سن ابنتها ، فنظرت إليها فى عتاب ولكن الدمعات كانت تنحدر بحرقة وبأسى من عيني نور فى حين لم تفهم أمها سبباً لهذه الدموع .

[٢٦]

كانت زوجة الأستاذ راضى فى قمة السعادة عندما أبلغها زوجها بأن مناقشة رسالة الماجستير الخاصة به ستكون يوم الأحد القادم . فلقد شعرت أن كفاحها معه سيتوج بالنجاح . قالت له :

- الحمد لله .

قال فى فخر :

- سيزيد مرتبي أربعة جنيهات بعد الماجستير .

استمعا إلى نشرة الأخبار. تواصلت سعادتهما فلقد نجح عجوز عراقي فى اصطياد طيارة أمريكية ببندقية قديمة، كما أذاع التلفزيون العراقي بعض اللقاءات مع الأسرى الأمريكيين والبريطانيين .

لم يتكلم الأستاذ راضى، فبادرته زوجته متسائلة :

- ألا تشعر بالسعادة؟ سيتحقق حلمك وستحصل على الدكتوراه بعد ذلك يوما ما.
- مشوار طويل .
- ولا يهمك. سأظل معك وأقف بجانبك.

حدثها عن مصاريف حجز قاعة المناقشة والاستعداد ليوم المناقشة فوضعت يدها على فمه وقالت :

- لا تكمل .

خلعت بعض الأساور من يدها وطلبت منه أن يبيعها مخبرة إياه بأنه هو الذي اشتراها لها وسوف يعوضها عندما يرزقه الله. احتضنها في ود ظاهر. واصل مشاهدة النشرة فإذا بصورة بعض آبار النفط العراقية تحترق، وكاد هو أن يحترق لأنه لم يرد أن تحرجه زوجته بكرمها البالغ وحبها الملتهب وتضحيتها بذهبها فأحرقته دموعه .

[٢٧]

كانت المشاعر تختلط فى نفس الأستاذ عادل وهم في طريقه إلى فيلا فريد بيه، فلقد كان يشعر بنشوة حب عارمة تزلزل كيانه فلقد أشعلت كلمات تغريد نار الحب فتوقدت جذوته في صدره من جديد،

وسعد عندما أدرك أن قلبه لم يمت وأنه يمكنه أن يحب من جديد، إلا أن هناك بصيص ضوء من مشاعر أخرى كانت ترقب هذا الحب الوليد، وتنظر إليه بعين التوجس فلقد شعر مؤخراً أن زوجته تقترب منه وتحاول أن ترضيه وتقتصد فى المصروفات ولا تكلفه بما لا يطيق كما كان الحال من قبل .

واستمر صراع المشاعر داخله إلى أن حسمه صوت تغريد قائلاً:

- أهلاً وسهلاً يا أستاذ عادل . نورت الفيلا.

سعد برقتها وامتلأ بالهناء عندما نظر إليها . كانت ترتدي فستانًا أحمر بلون الدم الذي تدفق إلى شرايين عاطفته من جديد. سلمت عليه. ود لو استطاع أن يضغط على يدها البضة. تمنى لو احترق أهل الأرض جميعاً وماتوا حتى تخلو الحياة لهما فقط . كان يطلب من قلبه أن يهدأ قليلاً حتى لا تفضحه النبضات فتعلم تغريد بهيامه .

طلبت منه أن يتبعها إلى حجرتها . كانت عيناه تنطلق فى كل مكان يدخله مثل كاميرا الفيديو تلتقط صورًا سريعة إلا أنها تعود وتركز على وجه أميرته الجميلة .

تساءل عن حياته كيف كانت ستكون لو تزوج امرأة من هذا الوسط الراقي، ولكنه تراجع قائلاً لنفسه:"ومن تلك التي كانت سترضى بك فقيراً معدماً فى أول حياتك إلا رتيبه؟" هز رأسه رافضاً كأنه يعترض .

أخذت تغريد بيده وأدخلته حجرتها. جذبت يده عندما تردد فى الدخول ، سألها فى خوف:

- أين ماما وبابا ؟

ارتفعت ضحكاتها وقالت :

- لا يوجد أحد

تنفس بهدوء ثم نظر إليها قائلاً :

- ها أنا ذا قد جئت. ما الذي كنت تريدينه ؟

سكتت برهة فتأمل وجهها المضئ ببريق الشباب الممتزج بنور الصبا، وزاد النور فى وجهها عندما فتحت فمها لتتكلم فبرزت أسنانها

اللؤلؤيه التي ساهمت فى إضاءة الحجرة بنور يشع من فتاة رائعة الجمال، قالت :

- أرجوك أن توافق على أن تعطى درساً لأخي.

امتعض وجهه فقالت في دلال :

- من أجلى أنا . إنه متهور ولا يعرف مصلحته .

هز رأسه بالموافقة . شعر بخدودها الوردية تتوهج فتمنى لو اقترب منها ليشعر بحرارتها ، ولكنه تراجع وسألها :

- وما الموضوع الهام الذي تريدينني فيه غير موضوع راشد.

رفعت عينها إلى سقف الحجرة المزخرف فبرز له كيف أنها حوراء شديدة بياض العينين شديدة سوادهما أيضًا، ويحرس عينيها حاجبان دقيقان فى شدة الحسن، ثم خفضت بصرها ولم تتكلم. كرر سؤاله مرة أخرى فلم تجب .

كان يتمنى أن يأخذها فى حضنه. إنها فى مثل سن ابنته تقريباً رفض أن يعترف برغبته الجنسية فيها، وأكد لنفسه أنه يود أن يحتضنها كما يحتضن ابنته .

وتحققت أمنيته سريعاً، فلو يكد يكرر السؤال مرة ثانية إلا وارتمت فى أحضانه باكيه ثم قالت وهى تنتحب :

- عندنا مشكلات كبيرة فى الفيلا ...

لم يكن الأستاذ عادل يستطيع أن يصدق ما يجرى، كانت تبكى وكان يبكى أيضاً، إنها أول مرة يشعر فيها بتجدد دماء الحب فى عروقه. تحسس شعرها الناعم شديد السواد، ثم ابتعد فجأة وقال لها:

- وماذا أستطيع أن أفعل ؟!

احتضنته ثانية ثم قالت :

- أرجوك ... ساعدني

ولم يستطع عادل هذه المرة أن ينتزع نفسه من حضنها، إلا أن بعض الطرقات على باب حجرة تغريد أجبرته على ذلك ...

[٢٨]

لم تكن مها تعتقد أن يتجرأ ناصر بياع الفول الذي يقبع بعربة الفول على ناصية الحارة ويطلب يدها . كانت كل نظراته لها تنطق بالحب ولكنها أكثر من مرة كانت تصده فى كلامها . ذات مرة غازلها عندما كانت تشترى منه الفول فأمرته أن يهتم بعمله وقالت :

- عليك أن تبيع للناس حبوب منع الفهم.

ضحك كثيراً ثم قال لها :

- ليتك تطلقين على الفول حبوب الحب ومنه الكره .

لم تكن تعلم أنه خريج جامعي إلا عندما قال لها :

- الفول ميزان البطن . إنه الحديد المسلح الذي تبنى أجسام الملايين عليه . على فكرة أنت تحديثينني بقرف ولا تقبلين مغازلتي لأنك تعتقدين أنني ضايع صايع .

ثم أخرج صورة مؤهله الدراسي وطلب منها أن تقرأ. صارت تحترمه ولا تناديه سوى بلقب أستاذ ناصر. أما أن يأتي ليطلب يدها؟

سألها أبوها قائلاً :

- ما العمل الآن ؟ وما رأيك؟

سكتت طويلاً فقال الأب فرحًا:

- السكوت علامة الرضا .

ردت قائلة :

- لا ..... لا يابابا وقد يكون السكوت علامة التفكير أو الرفض .
- أفضل إذا أن تجلسي معه.
- اعتذر له وقل له إني نائمة.
- لا أستطيع أن أكذب.

وقفت أمام المرآة تصلح من شعرها، ثم تزينت فبدت فى أجمل صورة وقررت الخروج إلا أنها تراجعت وأخذت تفكر فى فريد بيه وكيف سيصير حالها عندما تتزوجه وتنعم بالثراء والجاه .

أتاها صوت الأب فخرجت على استحياء ..

فوجئت بهيئة ناصر. لم تكد تعرفه. إنه فى غاية التأنق. يرتدى بذلة سوداء رائعة وشعره ممشط ومقصوص على أحدث طريقه وحذاؤه الأسود لامع، وحتى رابطة عنقه فى قمة الاتساق مع قميصه.

هب واقفاً وسلم عليها ، وارتسمت على وجهه ابتسامه عريضة أعجبها شاربه الرقيق الذي لم تلتفت إليه إلا الآن. قال والابتسامة تزين وجهه :

- أهلاً بعروستنا وأجمل بنات حارتنا .

زادها إطراؤه خجلاً فجلست. كان ناصر يتحدث عن إعجابه بالعروسة وعن جمالها وكيف أن أفضل الرجال يتهافتون على الزواج منها ثم تحدث عن كفاحه ونجاحه فى الكلية وعدم قدرته على العمل بوظيفة فاختار أن يبيع الفول أفضل من أن يقبع فى بيته مثل معظم الشباب الذين يرفضون العمل فى مثل هذه الأعمال، ولم تكن مها مع أبيها والعريس فلقد كانت تغوص فى عالم فريد بيه وتتذكر لمساته وهمساته فى أذنها .

ولما رآها ناصر تفكر قال لها :

- يا سعده يا هناء باله !!

انتبهت مها وسألته مرتبكة :

- من ؟

- من أخذ عقلك وتفكيرك .

- العمل .

قال أبوها فى حزم :

- ناصر شاب ممتاز وهو يتقدم لك. ولقد أتى البيت من بابه فما رأيك؟

شعرت مها بالحيرة ولم تعرف ماذا يمكنها أن تقول، شعر ناصر أيضاً بالحرج . إنها لحظة امتحان له وأخذ يتساءل هل ستقبله أم ترفضه، وقف قائلاً وقال :

- يا عمى .. دعها تفكر . مواضيع الزواج يجب أن تفكر البنات فيها كثيراً .

ثم التفت إلى مها وقال :

- خذي وقتك فى التفكير . وثقي أنني سأكون فى قمة السعادة إذا قبلت بي زوجًا وسأبذل ما فى جهدي لإسعادك، وإذا لم يكن هناك نصيب فستظلين فى منزلة أختي وسأظل أقدرك وأحترمك .

أعجبها تصرفه، وعندما انصرف سألها أبوها :

- ما رأيك ؟ شاب ممتاز ولبق ويكسب كثيرًا من بيع الفول وله مستقبل رائع .

بدا عليها الاستحياء وقالت متسائلة :

- أنا أتزوج بياع فول ؟!
- وماله بياع الفول ؟ رجل محترم ومثقف ومتعلم.

امتعضت وقالت :

- لو كنت مكانه ما طلبت يد فتاه ، كنت سأطلب شيئاً آخر .

سألها الأب متحيرًا .

- ماذا كان يجب أن يطلب إذا من وجهة نظرك يا ست الحسن وربة العقل .

ضحكت ثم قالت :

- كان يجب أن يطلب حماراً ليجر عربة الفول بدلاً من أن يطلب زوجة .

ثم غرقت فى ضحكاتها بينما غاص الأب فى تفكيره ونطقت علامات وجهه بالقلق على ابنته وقال :"ربنا يهديك يا مها" .

[٢٩]

لمعت عينا الأستاذ راضى بالشكر وقال لزوجته وهو يمسك يدها:

- لا أعرف كيف يمكن أن أشكرك، ولا أعرف هل أشكرك على وقوفك بجانبي فى أول تعارفنا عندما أقنعت أهلك بأنه ليس من الضروري أن نبدأ حياتنا بكافة الامكانيات والكماليات؟ أم أشكرك على وقوفك بجانبي فى أي أزمة تتعرض لها سفينة حياتنا ؟ أم أشكرك على موافقتك لي على مبدأ عدم إعطاء الدروس

الخصوصية ؟ أم أشكرك على وقوفك بجانبي فى كل خطوة من خطوات دراستي بالماجستير ؟ أكاد أن أبكى من شدة التأثر فأمسكت زوجته بيده قائلة :

- لا تقل هذا مرة ثانية . أنت زوجي وحبيبي وأنا لم أفعل معك شيئًا .
- تبيعين ذهبك من أجلى ؟
- أنت الذي اشتريته.
- ولكنه حقك.
- سأتنازل عنه لزوجي.
- أنا محظوظ بأجمل وأرق زوجة في العالم .
- وأنا محظوظة بأعظم زوج في العالم.

كانت حياتهما ترفرف عليها السعادة وتمتلئ بالحب والتفاني من أجل الآخر. طرق الباب وأتى ابن الجيران يطلب ملحًا لأمه، فقامت زوجه الأستاذ راضى وأعطته الملح وقبل أن يمشى راجعا لأمه طلبت منه أن ينتظرها وأعطته أربع قطع شيكولاته وقالت له :

- خذ واحدة لك والباقي لإخوتك.

ثم احتضنته فى حنان، ولما خرج الطفل رجعت باكيه، مسح زوجها دمعاتها وقال:

- لماذا تبكين الآن ؟
- كنت تقول إني وقفت جانبك كثيرًا، وفى الحقيقة أنا التي لا أعرف كيف أشكرك لوقوفك بجانبي .. خمس سنوات ولم أنجب لك طفلاً .. أنفقت كل ما لدينا على علاجي عند الأطباء ولا فائدة. كنت أشعر بأني مثل التلميذ الخايب، وأنا على أعتاب الطبيب فتشجعني وتخبرني أن العيب منك إلى أن تأكدنا أن العيب منى، ومع هذا وقفت بجانبي وعارضت أهلك عندما عرضوا عليك فكرة الزواج وتمسكت بي، ولما أيقنا أن الإنجاب مستحيل لازلت متمسكًا بي . إني أحبك ... لا ... إن كلمات الحب والعشق التي تمتلئ بها الكتب لا يمكن أن تعبر عن مدى حبي لك وامتناني لك ولن أستطيع أن أوفى حقك على. إنك تأسرني بحبك .

انخرطت فى البكاء .

حاول أن يهدئ من روعها وقال :

- أنت زوجتي وحبيبتي وصديقتي .
- أريدك أن تتزوج حتى لا أحس بذنبك .
- ومن قال لك إني أريد الزواج ؟ لدى طفلة جميلة
- ماذا تقول ؟

نعم ... أنت زوجتي وابنتي . قومي واشكري الله على نعمه . هيا استعدى لصلاة المغرب واستغفري الله ... وقفت وأدخلت أصابعها فى شعره ثم قالت :

- ألم أقل لك إنني زوجة أعظم رجل في العالم.

ثم احتضنته وربتت على ظهره وعيناها تنطق بكل معاني الشكر والامتنان، وبنفس المعاني كانت تنطق عيون الأستاذ راضى .. ثم ارتفع أذان المغرب ليقوى من إيمانها، فقالت له بكل سعادة :

- هيا للصلاة أيها الإمام.

وضحكا كثيرًا.. ثم استعدا للصلاة وجو الإيمان والرضا يغمرهما إلى أن انتهيا من صلاتهما ..

[٣٠]

دخل صابر إلى أخيه وأيقظه قائلاً :

- قم . فتاتان فى غاية الجمال تسألان عنك .

رد إبراهيم والذهول يتملكه :

- من ؟
- لا أدرى.
- يا لك من نمس !! فتاتان مرة واحدة وآخر حلاوة !!

اعتدل إبراهيم في سريره، دخلت الفتاتان. أحس إبراهيم بالذهول والدهشة . لم يكن يتمنى أن يزوره أحد ويعرف أنه يعيش في هذا

المستوى المتواضع. تقدمت لمياء وسلمت عليه ثم تبعتها زميلتها. ولكن صوت نور المرتفع وصل إليه وكانت تقول :

- وأنا أريد أن أطمئن على إبراهيم .

ودفعت الباب بقوة ودخلت ، نظرت شذرا للفتاتين واسرعت وجلست بجوار إبراهيم وقالت :

- ألف سلامة يا أستاذ إبراهيم .

شكرها قائلاً :

- شكراً يا حبيبتي .

شعرت بالسعادة عندما ربت على ظهرها. ونظرت وكل معاني الظفر تنطلق من عينيها، وأخرجت لسانها للفاتيتن اللتان سارعتا في النهوض حتى ينصرفا، فدخلت الأم وصينية العصير في يديها، كان إبراهيم يود أن يصرخ معلناً عن رفضه للفقر الذي يعيشون فيه، ولكنه كتم صرخته وقال مخاطباً أمه :

- لمياء وسها فى اتحاد الطلاب.

سلمت عليهما الأم، نظرت لمياء إلى الأم فى اشمئزاز، انصرفت الفتاتان ولم تبق سوى نور مع إبراهيم. بادرته قائلة :

- كنت قلقة عليك جدًا .

أخذ إبراهيم يبكى عندما أحس بطعنة الفقر تدمى مشاعره. لقد صارحته لمياء بحبها ولكنه كان يعلم أن أباها رئيس تحرير مجلة كبرى، لم يبادلها علامات الحب وكان يقول لها :

- ما زلنا صغارًا على هذه الأمور .

لقد حدث ما كان يخشاه ورأته على حقيقته وماذا يعنى؟

لتذهب لمياء وأبوها إلى الجحيم . إذا كانت تحبني فسوف تزداد تعلقاً بي ولكن .... كيف وقد كشفت حقيقتي ؟!

دخلت أمه فأخذها فى حضنه، وعندما دخلت الست جمالات سلمت عليه وقالت :

- كفاك تدليلاً لإبراهيم يا ست هنية . الحمد لله .

بسم الله ما شاء الله ... هيا قم مثل الحصان وأرجع لدراستك وربنا يبعدك عن أولاد الحرام . اهتم بدروسك وكفاك من لعب العيال .

بدا الغضب على إبراهيم وصاح :

- لسنا عيالاً... نحن نحافظ على أمتنا ونعلن رفضنا لضرب العراق .
- هل تعتقد أن صدام حسين سيكسب الحرب ؟

لم يرد إبراهيم ، ولكن ردت نور قائلة :

- إبراهيم رجل ولا تقولي عليه إنه من العيال.

دخل الجد ليطمئن على حفيده، وأعطاه جريدة معارضة وقال :

- اقرأ خسائر الاحتلال فى العراق ...

ثم قال ونبرة السخرية تعلو صوته :

- كانوا يعتقدون أنهم سيذهبون إلى نزهة !!

أمسكت نور الجريدة وقالت لإبراهيم :

- سأقرأ لك .

بادرت الست جمالات الجد قائلة فى صوت كالهمس :

- أريدك في أمر هام . وعلى انفراد.

وأخذت بيده وخرجا سوياً ونور تقرأ الجريدة لإبراهيم الذي كان لا يزال يفكر فى زميلته لمياء وكان يعتقد أنها ستفضحه أمام زملائه فى الكلية ... ولم يكن يحس بأي شيء إلا بقلب نور الذي تتزايد خفقاته .

[٣١]

اشتعلت نار الخلافات بين فريد بيه وزوجته، وطالبته أكثر من مرة بالطلاق ولكنه كان يرفض بشدة طالبًا منها أن تبعد الشيطان عنها فكانت تفهمه بأنه هو الشيطان وأحياناً كانت تناديه برجس الشيطان. كان سعيداً برؤية الانكسار فى عينيها، فلقد تكبرت عليه كثيرًا، وأحياناً كانت تتعمد أن تجرح أحاسيسه أمام أبنائه وأمام الموظفين فى المصنع دومًا كانت تتباهى بأنها ابنه الأسرة سليلة الباشوات أما هو فلقد كان ينتمي إلى أسرة متواضعة، وعندما تزوجته رفعته إلى مصاف الكبراء والنبلاء .

دخلت علية ذات ليلة وعيناها على الأرض وقالت فى استسلام :

- هل يمكن أن نتكلم قليلاً ؟

نظر إليها فى دهشة لتغير حالها وقال فى كبرياء لا يلازمه إلا قليلاً :

- أفندم ! سيادتك تريدين أن تتكلمي معي !؟

ورفع رأسه إلى أعلى ثم رفع ساقا ووضعها على الساق الأخرى، اقتربت منه والدموع متحجرة فى عينيها وقالت :

- من هذه المرأة الأخرى ؟
- تقصدين السكرتيرة ؟
- نعم.
- اخز الشيطان ولا تتكلمي فى هذا الموضوع.
- هل ستتزوجها ؟
- أفكر فى الأمر.
- وتنسى حبنا ؟
- تقصدين أنسى عجرفتك وتكبرك علىَّ.
- وتنسى أولادنا ؟
- أنسى العذاب الذي تذيقينني إياه كل يوم ؟

عادوتها مشاعر الكبرياء مرة أخرى وقالت فى غضب :

- وهل تعتقد أنني أريدك أن تظل زوجًا لىَّ؟

سكتت لحظة ثم اتجهت إليه وقالت :

- الآلاف غيرك يتمنون نظرة مني .

واصل صمته. أمسكت بخناقه وقالت :

- طلقني . أرجوك طلقني .

انهمرت من عينيها الدموع. أبعد يدها عن خناقه وصاح فيها قائلاً:

- أنت السبب. إنك لم تشعريني يومًا أنني زوج تحبه امرأته وتخشى غضبه .

نهضت غاضبه وتماسكت ثم قالت باستنكار :

- كنت تريدني أن أكون خادمة أدلك رجليك وأنظف حذاءك بلساني؟

ارتفع صوته قائلاً :

- وما يضيرك لو فعلت هذا ؟

أخذتها العزة بالإثم ورفعت يدها لتهوى بها على صدغه، أمسكها بقوة وقال بصوت مرتفع :

- إياك !!

ثم قال :

- أفضل شيء أن أتزوج عليك ثلاثة نساء لا امرأة واحدة .
- طلقني أولاً .
- هذا أبعد إليك من نجوم السماء .

تحولت المشادة بينهما إلى تشابك بالأيدي، وكانت تغريد مع راشد يستمعان إلى كل ما حدث. بكت تغريد وذهبت إلى حضن أمها ، لم يتأثر راشد كثيرًا، ولكنه صاح قائلاً

- أريد العشاء .

أراد الأب أن يضحك ولكن تغريد كانت غارقة فى البكاء، خرج فريد بيه وأغلق الباب بكل عنف بينما واصلت تغريد بكاءها وقالت :

- متى يعم السلام بيتنا يا ماما ؟
- أبوك سيحطم البيت .

نظرت تغريد إلى أمها قائلة :

- وأنت ستحطمين البيت أيضًا .
- سيتزوج امرأة غير أمك .

يشتد البكاء بالمرأة وابنتها بينما كان راشد منهمكًا في أكل الطعام بتلذذ غريب وكأن ما يحدث لا يعنيه بشئ اتجه إلى أخته وأعطاها تفاحه إلا أنها رفضت أن تأخذها، وصاحت فيه :

- تأكل وكأن الأمر لا يعنيك ؟

واصل أكله بشراهة وقال :

- وأنا مالي ... مشاكلهما يحلانها معًا ... يا سلام على اللحم المشوي ... هل تأخذين قطعة ؟!

نظرت أمه إليه وتمنت لو ذهبت إليه وأوسعته ضربًا ولكنها استمرت فى البكاء وقالت تنهره :

- تبالك يا بن الكلب !! الحية تخلف الثعبان .

اغتاظ وقال :

- لا تسبيني بأبي.

وقالت تغريد :

- لا تسبين أبى.

وقفت والغيظ يقتلها وقالت :

- تحبان الأب النذل ؟ سأترك لكما البيت سأدعكما تنعمان بحبه .

ثم خرجت في غيظ وأغلقت الباب بشدة وبعنف لدرجة أن الأطفال شعرا أنها كادت أن تخلعه، أزداد بكاء تغريد بينما استمر راشد فى طعامه ..

[٣٢]

قال الأب لابنته :

- يا مها يا بنتي . لن أعيش لك أكثر مما عشته معك.

فهمت مها كلامه وقالت :

- ربنا يعطيك الصحة وطول العمر يا بابا . تريد أن تتخلص منى لتتزوج ؟

كانت كثيرة المقارنة بين ناصر بياع الفول الذي يطلب يدها وفريد الذي كان يكلمها كثيراً عن مشاكله مع زوجته، وكان هذا هو الطريق

الذي أوصله إلى طلب المساعدة منها . كان يخبرها أن زوجته لا تهتم بشعرها أو تضع له المكياج أو ترتدي أي ملابس تعجبه، ولم تكن تفعل هذا إلا إذا همت بالخروج. ذات مرة بكى على صدر مها فابتعدت عنه، إلا أنه طلب منها أن تساعده ، وخرجا سوياً أكثر من مرة .

أيقظها سؤال أبيها من تفكيرها فلقد قال متسائلاً وصبره يكاد أن ينفد :

- ماذا أقول للأستاذ ناصر ؟

ترددت الفتاة قليلاً ثم قالت فى سخرية :

- أطلب منه أن يشترى حماراً ليجر عربته التي يبيع عليها الفول أو أطلب منه أن يتزوج قدرة فول .

فهم الأب كلامها .

ولكن حدثت مفاجأة لم يتوقعها الأب ولا مها. فلقد كانت هناك طرقات مؤدبة على الباب. تمنت مها أن تفتح الباب وأن تجد فريد بيه مبتسماً يسأل عن أبيها ليطلب يدها ...

غابت فى هذا الحلم لحظات وتخيلت أنها تقول لأبيها:"هل رأيت الرجال الذين يملؤون العيون ؟!" انتظرت مها وطلبت من أبيها أن يفتح الباب وبان عليها الخجل، وفتح الباب وكانت المفاجأة ! شخص تملؤه الرغبة في الزواج من مها .

ولكم كانت صدمة مها عندما رأته .. شعرت بالسعادة والحزن معا!!

إنه حسين العجلاتي !!

شعرت بالسعادة لأنها أدركت أن هناك آخرين يرغبون فى الزواج منها غير فريد بيه وناصر بياع الفول، زاد شعورها بالرضا عن نفسها وأرضى هذا كبرياء جمالها، وأكدت لنفسها أنها خبيرة بشئون الرجال، فلقد صدق حدسها ، أما الحزن الذي أصابها فكان نتيجة لخوفها من المثل القائل "بارت لكثرة خطابها" كما أن فريد بيه يريد أن يحبها فقط ويريد حنانها هرباً من كرهه لزوجته. إنه لم يفاتحها قط فى موضوع الزواج .

جلس حسين وبجواره أكياس الفاكهة والحلوى التي جلبها معه كما دخلت أمه وقبلت مها التي كانت معاملتها لها تبدو فى غاية الفتور .

تحدثت والدة حسين عن مزايا ابنها وكيف أنه حصل على دبلوم صنايع ولم يكمل تعليمه لا لعلة فيه وإنما لأنه فضل أن يكون رجلاً يعول أمه وأخوته، وبفضل الله زوج إخوته البنات جميعًا، وإنها مهما بحثت عن عروس لابنها فإنها لم ولن تجد خيراً من مها زينة الحارة وست العاقلات :

دخلت مها حجرتها.لم تفكر كثيرًا، كيف يمكن أن ترفض ناصر وتقبل بهذا العجلاتي نظرت إلى جمالها فى المرأة وأكدت لنفسها أن فريد بيه سيطلب منها الزواج بلا ريب، وحتى إذا لم يطلبه فستفاتحه هي فى هذا الأمر .

ورغم خشيتها من أن يكون فريد يتسلى بها، طرأ فى ذهنها المثل الشعبي الذي كانت أمها ترددده كثيرًا:"عصفور فى اليد ولا عشرة على الشجرة" .

سمعت زغرودة أم حسين فتملكها الغضب .. دخل أبوها فسألته:

- لماذا تزعرد هذه الحيزبون ؟

نظر إليها أبوها بغضب وقال :

- إنها ضيفة .
- وهل وافقت على الزواج ؟
- لا الأمر لك. كل ما قلته أنني أرحب بها وبابنها.

أما القرار النهائي فلك يا مها .

- تريد أن تزوجني حتى ترتاح من همي ؟
- والله أريديك معي دائماً ولكنها سنة الحياة

سكت قليلاً ثم سألها :

- ماذا أقول لهما ؟

ابتسمت ثم قالت له :

قل لحسين أن يطلب يد منفاخ لعجلته لأنه لن يقدر على مهري .

- يا بنتي هذا لا يجوز .
- ابلغهم بهذا يا بابا بدلاً من أن أبلغهم أنا .

خرجت منها ضحكة رغما عنها، ولما فتح الأب باب حجرتها، نظرت فلم تجد في الصالة أحداً ، فابتسمت وقالت :

- في داهية ... لم يبق إلا أن يطلبني هذا العجلاتي .

جلس الأب في كرسيه يفكر، وكانت مها أيضاً تفكر فيما ستفعله مع فريد بيه في الغد، فى حين كانت نظرات أم حسين تتطلق شذرا وغيظاً وتقول لابنها: "مالها نفيسه بنت عمك ؟ لا أعرف لماذا تتكبر مها؟! على مالها أم على جمالها ؟"

كانت أمه تتحدث ولكنه كان واجماً يفكر .. وانطلق بعجلة ركبها فى حين كان ناصر بياع الفول يرمقه بشفقه ورثاء معًا ..

[٣٣]

كان التليفون يرن فى الصالة، ولا أحد يرد . ولما استمر الرنين لمرة ثانية وثالثة، قامت زوجة الأستاذ عادل وردت عليه والنوم يتراقص أمام عينيها وقالت :

- ألو ... مَن ؟

لم يرد أحد، فتوعدت من يتصل بالويل البثور وعظائم الأمور، ولما سألها زوجها عن الساعة ردت قائلة :

- الساعة الثالثة فجرًا .

ولم تكد تنتهي من عبارتها إلا وسقطت كحجر ألقى فى بئر النوم فوصل قاعه سريعًا ...

رن التليفون مرة ثانية ، فقام الأستاذ عادل على أطراف أصابعه بهدوء حتى لا يزعج زوجته، ورفع السماعة قائلاً .

- ألو .

لم يرد أحد فصاح غاضبًا:

- يا قليل الأدب !! لماذا تزعج الناس فى هذا الوقت.

لم يسمع رداً وفكر في أن يلقي السماعة ولكنه تذكر نظرات تغريد ، أتاه صوتها عذبًا رقيقًا .

- آسفه .
- من حضرتك ؟
- تغريد ولا تصفني بأني قليلة الأدب.
- معذرة لم أكن أعرف من أنت.
- أسفه سامحني ، ولكن أبى سيطلق أمي وأنا أحتاجك بجواري .
- ولكني أرفض أن أعطى راشد درسًا .
- من أجل خاطري أقبل ولك عندي مفاجأة .
- وما هي ؟
- أقنعت أمي بأن توافق على أن تدرس لي أيضًا

كان قلبه أن يتوقف من فرط سعادته. سيقف أمامها أو يجلس ناظرًا لعينيها ووجهها الرائع.إنه لا يصدق ألجمته المفاجأة، وظل يستمع إليها :

- أنا أحتاجك يا أستاذ عادل

إن قلبه لم يمت، لازالت به بوادر حياة، إنه يفتقد إلى مثل هذا الإحساس . قال لها :

- سأدرس لك .
- وتتحدث معي وتحاول أن تحل مشاكلي.
- سأحاول.
- هل لديك مشكلات مع زوجتك ؟
- أبدًا !
- إذاً فلماذا لا يكف أبى وأمي عن التشاجر دومًا ؟
- ستخبريني بالظروف.
- وستساعدني ؟

- بالطبع.
- وستساعد راشد فى المذاكرة ؟
- إنه ضعيف .
- سيذاكر ... عامله برفق.
- من أجل خاطرك أنت .
- شكراً يا أستاذ عادل.
- العفو ولكن من أين تتحدثن ؟
- من التليفون في حجرتي.
- طيب مع السلامة.
- لا أريدك أن تنهى المكالمة معي بسرعة هكذا .
- طيب.
- هل تحب زوجتك.

تردد قليلاً ولكنه قال :

- نعم.
- كم من الأولاد لديك ؟.
- اثنان .
- نفس الشيء بالنسبة لأسرتي.

أراد الأستاذ عادل أن يطيل معها الحديث، ولكنه قال في حزم:

- نامي حتى تذهبي إلى المدرسة غدًا

شعر عادل بأن زوجته تتحرك فقال لينهى المكالمة :

- يا قليل الأدب لا تتصل فى مثل هذا الوقت ثانية .

ردت الفتاة قائلة :

- يبدو أن الحكومة ضبطتك
- أية حكومة ؟

- زوجتك.

ولما رأى عادل زوجته تنهض وضع سماعة الهاتف وصاح فى تظاهر :

- ناس ليس لديهم أي ذوق !!

تثاءبت زوجته وواصلت نومها، بينما ظل عادل يفكر فى عيني تغريد الجميلتين ويمنى نفسه بحب جديد ..

[٣٤]

وقف سيد عثمان يهز رأسه موافقاً على ما تقوله علياء هانم ، وفى نفس الوقت كان كلبها يهز ذيله ويتمسح بها كما كان سيد يهز رأسه تماماً ، ولكنه بادرها قائلاً :

- كلامك مضبوط يا ست هانم .
- إذا ستنفذ ما آمرك به ؟
- ولكن السرعة صعبة جدًا. كنت معتادًا أن أنقل لك الأمور كلها أما السرقة فصعبة جدًا .

نظرت إليه وكأنها تساومه وقالت :

- كل شيء بثمنه .

ظهر الرضا في عينيه وقال :

- أمرك يا سيدتي ولكن هناك مشكلة.
- ما هي ؟
- لقد فصلني فريد بيه ولن أستطيع أن أدخل المصنع ثانية.
- تصرف يا أخي .
- يا ست هانم.

قاطعته متهمة إياه بالجبن ، فاستثارت فيه نوازع الرفض ولكنه قال :

- لست جبانًا .

أبلغته أنه هكذا يكون الرجال، فنطقت علامات وجهة بالرضا، ونهض قائلاً :

- سأسرق الخزينة. عليك أن تعتقدي أن كل ما بها من مال صار فى يديك يا ست هانم .
- هكذا يكون الرجال.
- ولكني أريد شيئاً .
- تفضل.
- أخذ نسبة ١٠% من المال الذي فيها.
- لك ما تريد.
- أريد شيئًا آخر .
- ما هو ؟
- مسدس.
- لماذا؟
- لأحمى نفسي.
- لك ما تريد.

ودخلت حجرة فريد وأخرجت المسدس وأعطته إياه وتمنت له التوفيق قائلة :

- هكذا يكون السباع ... أقصد الرجال.

أدخل المسدس فى جيبه وخرج مسرعًا، وقال لها :

- بعد عشرة أيام ستسمعين ما يسرك.

كانت تتمنى أن يكون بالخزينة كل مال المصنع، ستعود جربوعًا يا فريد كما كنت فى البداية، أنا علياء هانم على سن ورمح تتركني من أجل امرأة وتهددني بأن تتزوج على ثلاثة نساء تعسا لك سأعلمك أن تأتيني راكعاً تطلب منى الغفران وساعتها لن أرحمك ... سأرفضك وأبعدك عنى كالكلب ...

[٣٥]

كانت الآلات فى المصنع تدور مسرعة، شعر متعب أنها لن تتوقف أبدًا، ومع ذلك توقفت كل محاولاته لكسب ود زملائه ، فلقد تركوه وحيدًا، لا أحد يسلم عليه أو يكلمه. لقد صار عدوًا لهم بسبب موقفه الرافض للإضراب الذي سيجبر الحكومة على الانصياع لمطالبهم، كانوا يرون فى خصخصة المصنع كارثة تحيق بهم، وكان يرى أن الإضراب لن يكون إلا سببًا فى التصادم مع الإدارة ومع الحكومة وكان يرى أن كل آمالهم سوف تتحطم على صخرة الواقع .

كان شعاره "لا للتصادم مع الحكومة" لقد رأى بنفسه ما حصل لابنه بسبب المظاهرات. ولما تعافى ابنه نهره وأمره بأن يسير بجانب الحائط وألا يتحدث مع أحد بشأن السياسة فللحوائط آذان. وعاهده الابن على عدم السير في مظاهرات أو حضور أية مؤتمرات لتنظيمات أو جماعات وعيناه تدمعان. لقد سافر إلى العراق واكتسب رزقه من خير أرض العراق وبنى أولاد عمه بيوتاً في قراهم من المال الذي جمعوه في العراق. إنه يحب العراق ولكن ما الذي بوسعه أن يقدمه ؟

نظرات زملائه تلفظه ولا تريده معهم . كان إذا مر بهم يتغامرون، وإذا كانوا يتحدثون فإنهم يصمتون عندما يرونه، لم يعد أحد يشاركه الطعام أو الشراب أو الحديث.

جاءه ساعي المدير قائلاً :

- جناب المدير يريدك.

كادت روحه أن تنخلع من صدره، إنه سيوبخه بسبب ضرب ابنه صابر لابن جنابه. يا للكارثة التي حلت بك يا متعب. هل تجدها من زملائك فى العمل أم تجدها من المدير ومشاكل ابنك مع ابنه .

سار والتردد يقود خطواته. أنها أول مرة يدخل فيها مكتب المدير، بهرته الديكورات وفخامة المكتب. نظر بعين الريبة إلى المدير وود أن يعتذر للمدير عما حدث من ابنه صابر، إلا أن فريد بيه استقبله بوجه البشر وسلم عليه قائلاً :

- أهلاً وسهلاً برجال المصنع المخلصين.

تعجب متعب من معاملة المدير الرقيقة. وقف المدير وقال :

- ما أخبار العمل ؟
- الحمد لله يا سعادة البيه
- وما أخبار الزملاء ؟

تردد متعب فى الإجابة . ولكن فريد بيه قال بسرعة :

- تقاريرك ممتازة ونفكر بشأن ترقيتك.
- ألف شكر يا فندم.
- الإدارة سعيدة بموقفك النبيل.
- أي موقف؟
- موقفك من الإضراب . هناك من يريد أن يكون زعيمًا ..

قاطعه متعب قائلاً :

- إنهم على حق . أتريدون حقيقة خصخصة المصنع ؟
- نعم . إن الخسائر كبيرة ويجب أن نستغني عن بعض العمال .

نظر إليه فى فزع وقال :

- تخربون بيوتهم ولا تريدون منهم أن ينظموا إضرابًا أو يمتنعوا عن العمل ؟
- أنت معنا أم معهم ؟

كان فريد بيه ينظر إليه وكأنه يردد مقولة من ليس معي فهو ضدي، وقف متعب قائلاً :

- لا معك ولا معهم . أنا مع الحق.
- سنعوضهم يا متعب.
- ستعطونهم الملاليم.
- هذا قرار مجلس الإدارة.

سكت متعب قليلاً وقال فريد ... في هدوء :

- ونحن لن نستغني عنك.

بدا الرضا على وجه متعب ولكن هذا الرضا تحول إلى غضب عندما قال فريد :

- بشرط أن تكون معنا.
- وماذا تريدون ؟
- تظاهر أنك مع الإضراب وبلغنا بأسماء زعماء العمال .
- لا ... لن أكون جاسوسًا .

خرجت كلماته رغماً عنه ثم انصرف من المكتب والدنيا تدور به، رمقه المدير باحتقار، كان يشعر بدوى صفير يملأ أذنيه، خرج من السكرتارية وهو لا يدري بأي شيء، وعندما غطى صوت الآلات على صوت الصفير الذي بأذنيه ، نادى زملاءه فابتعدوا جميعاً عنه ونبذوه كالكلب الأجرب ، صرخ بشدة عندما انصرفوا عنه ، ولكنه عاد ثانية إلى المدير عندما شعر بانصرافهم عنه وقال لفريد بيه :

- سأبلغك أسماء منظمي الإضراب واحدًا واحدًا.

ابتسم فريد بيه وقال :

- أحسنت .. كنت أعلم . أنك تعرف مصلحتك جيدًا
- سأبلغك في الغد.
- لك ما تريد ولكن بشرط.
- ما هو ؟
- أن تدعني ألقى فيهم خطبة
- لك هذا.

انصرف من مكتبة وهو يفكر فيما فعله، كان يود أن يكلمه أحد زملائه أو يعاتبه أحدهم ولكن هذا لم يحدث فازداد إيماناً بما قرر أن يفعله .

[٣٦]

- لا .. لن نترك هذا المكان أبدًا

صرخت نور وهى تحدث أمها. كانت ترفض بشدة. أن تغادر هذه المنطقة، حاولت أمها اقناعها إلا أنها لم تستطيع. كانت الأم تشعر بخطر

كبير نتيجة البقاء فى هذا المكان. شعرت نور بانقباض غريب فى قلبها عندما بدأت أمها الحديث بشأن ترك هذا المكان .

وبدأت نور تعدد لأمها أسباب هذا الرفض سواءً بقرب المدرسة أو بأن هذا المكان هو الذي ولدت فيه وترعرت أو أنهم يعرفون الجيران جيداً ويقيمون معهم علاقات طيبة ولكنها أبدا لم تذكر السبب الحقيقي بأنها تود أن تظل بجوار إبراهيم .

أما الأم فلقد حاولت بكل الطرق أن تغرى ابنتها بترك هذه الشقة ، ولما لم تجد الأم طريقاً لإقناع نور ظلت واجمة وأخذت تتذكر ما حدث لها هذا الصباح بعد أن ذهبت نور إلى مدرستها وحكت لابنتها القصة .

كانت الأم نائمة فى فراشها، وإذا بها تسمع همهمات بعض الرجال خارج الشقة . نهضت فزعة، أخفت حقيبتها المليئة بالنقود تحت سريرها ثم أمسكت بسكين كبير وقبعت خلف الباب ونظرت من ثقب الباب ترقب الرجلين ، كان أحدهما ملثما أما الآخر فكان يتحدث مع زميله عن طريق إشارات العيون .

كانت الأم تود أن تصرخ حتى ينقذها الجيران، ماذا تفعل وهى بمفردها وليس معها سوى سكين. صرخت في أعماقها والرعب يجبرها على غلق فمها وكانت تتساءل عن مصيرها إذا دفعا الباب وقتلاها .

طرق أحد الرجلين على الباب فلم تفتح . أشار الرجل الملثم لزميله أن يكسر الباب بكتفه ، كاد الخوف أن يقتل جمالات ولكنها وقفت ساكنة خلف الباب وأمسكت بالسكين في يد وبعصا غليظة في اليد الأخرى . دخل الرجل الملثم الشقة أولاً وجال بناظريه فوجد شقة صغيرة فقال لصاحبه :

- لا أعتقد أن أحدًا هنا .

وفى اللحظة ذاتها هوت جمالات بالعصا الغليظة على رأس الرجل الملثم فسقط بلا حراك، كما طعنت الرجل الآخر بالسكين فتكوم بجوار زميله . ولم تكد المرأة تصدق ما حدث فهمت بالصراخ حتى اجتمع عليها الجيران .

كان جد صابر أول من وصل إلى شقتها وجاءت الشرطة، كانت نور تستمع إلى أمها وهى فخورة بها سعيدة بشجاعتها. أطلق عليها صابر لقب الفتوة وصار جده يناديها بالبطلة .

ولأول مرة تشعر أنها فى حاجة إلى من يحميها . قال جد صابر :

- أن هذه أول مرة تتعرض المنطقة لحادث سرقة من هذا النوع

قال إبراهيم فى أسى :

- إن منطقتنا تنهب من مئات السنين .

نظرت نور إلى عيني إبراهيم فى ود ظاهر وسألته :

ماذا فعلت مع البنتين السخيفتين :

لم يعرف ماذا يقول لها ، أراد أن يخبرها أن لمياء سرقت قلبه فترة من الزمن ولكنه قال :-

- إنهما في اتحاد الطلاب.
- ولماذا زيارتك أنت بالذات؟
- لأني أمين اتحاد الطلاب.
- فقط ؟!
- فقط ولا شيء آخر .
- طيب اشرح لي درس الحساب هذا يا أستاذ إبراهيم .

نادى إبراهيم أخيه صابر حتى يفهمه مع نور درس الحساب، وكان يفكر ويشرح بسلاسة وتشعر نور أنه يصب الدرس فى قلبها صباً، أما صابر فكان ينظر إلى نور بنفس النظرات التي كانت تنظر بها إلى أخيه. ولأول مرة يشعر صابر بمشاعر الكراهية تنتابه نحو أخيه. إنه يتمنى أن يموت حتى يخلو له الجو مع نور التي كانت نظراتها تتجاهله تمامًا .

أخذت الست جمالات بيد الجد إلى الصالة وقالت له :-

- إني أريدك فى أمر سرى.
- وهل توجد بيننا أسرار ؟
- توجد أسرار من اليوم .
- عدني بأن تكتم سرى وألا تخبر أحدًا.
- سرك في بير.

- حصلت على مبلغ هائل من المال.
- خمسين جنيهاً مثلاً ؟
- لا خمسمائة ألف جنيه .. نصف مليون جنيه.
- كان هذا هو السبب فى محاولة سرقتك ؟
- لا أعلم.
- هل نخبر رجال الشرطة ؟
- لا ... وإلا ضاعت علينا هذه النقود.
- وما الحل من وجهة نظرك ؟
- نتزوج .
- تتزوجيني أنا ؟
- وما المانع ؟ ألست رجلاً.

كاد الجد أن يقهقه ولكنه نظر إليها فوجد علامات الجدية تملأ وجهها وقال :

- أفهم أنك تحتاجين إلى رجل قوى يحميك ويدافع عنك .
- أحتاج إليك أنت.
- لماذا ؟
- سننفق كل هذا المال في الخير وفى سبيل الله إنه مال الله .
- ولكن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.
- ومن أدراك أنني حصلت على المال من حرام ؟
- إني لا أكاد أصدق ما تقولينه.
- تعالى معي إلى شقتي لترى بعينيك.

صعد مرزوق معها وكاد أن يغمي عليه عندما رأى المال. قالت له المرأة في لهفة جادة :

- ما رأيك؟
- دعيني أفكر

انصرف الحاج مرزوق وهو في غاية الدهشة، وكان يتساءل عما يمكن أن يقوله لابنه وأخذ يردد بصوت سمعته جمالات ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٣٧]

كانت حجرة المدرسين تعج بالضجيج فلقد علا صوت الزملاء وهم يباركون لزميلهم راضى لحصوله على الماجستير في التربية. كان بعض الزملاء يقدمون له التهنئة مخلصين في مشاعرهم متناسين الخلافات في وجهات النظر فيما يتعلق بإعطاء الدروس الخصوصية، بينما كان البعض الآخر يقدمون التهنئة وفى نفوسهم شيء من الحقد والغيظ. ولقد كان الأستاذ ذكى مدرس الفيزياء من النوع الثاني حيث تقدم للتهنئة وقال:

- ألف مبروك عليك الجنيهات الأربعة.

فهم راضى ما كان يقصده زميلة فقال :

- ليس المهم الجنيهات المعدودات ولكن المهم المكانة.

وزع الأستاذ راضى بنفسه قطع الحلوى والجاتوهات ثم قال:

- عقبى لكم جميعا.

وبنفس نظرات الحقد قال ذكى :

- كيف ندرس من جديد والدروس الخصوصية تأخذ كل وقتنا

أراد الأستاذ ذكى أن يشيع روح الحب وسط زملائه فقال:

- أرجو أن لا تفهموا أنى أحرم أو أجرم إعطاء الدروس الخصوصية فهي موجودة منذ القدم حيث كان أبناء الملوك والسلاطين يأخذون الدروس. ولكنه مبدأ أسير عليه في حياتي.

رد ذكى غاضبا وقال متعمدا جرح زميله.

- لو كان لديك طفل واحد لغيرت رأيك فالحياة صعبة ومتطلباتها لا تطاق .

فهم راضى أن زميله يريد أن يشير إلى أنه لا ينجب فرد في هدوء:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

ثم ذرفت عيناه الدموع وقال :

- لست أحرم الدروس الخصوصية ولكن إذا أجبرت التلاميذ عليها فإنها تصير حراما .

رد ذكى قائلا:

- بدلا من اتخاذ محاربة الدروس الخصوصية مبدأ لك وشعارا ترفعه كان يمكنك أن تحارب فقر المدرسين وحقارة المبالغ التي يحصلون عليها كمرتبات لا تسد رمقهم أو تدفعهم لترك الوطن والهروب للتدريس في الدول الغنية.

قال راضى بكل تخاذل :

- معك حق.

قال عادل في هدوء :

- أرجو أن لا تفسدوا سعادتنا وفرحتنا بهذه المناقشات وهنيئا لنا هذه المأكولات والمشروبات .

وأطلقت بعض الزميلات الزغاريد، وشعر ذكى بمشاعر الود الصادقة والإخوة الحقيقية فاتجه إلى راضى واحتضنه واعتذر له بأنه لا يقصد، وهدأت فتنه كادت إن تقطع أواصر المحبة بين الزملاء، نامت رأس الفتنة بين وجهتي النظر المؤيدة والمعارضة لإعطاء دروس خصوصية احتضن الزملاء بعضهم وانطلقت أصوات التصفيق من باقي الزملاء. ولم تدم هذه المشاعر طويلا فلقد دخل أحد الفراشين وقال للأستاذ عادل :

- جاءنا تليفون الآن يبلغك أن المدام في المستشفى

ساد الصمت في حجرة المدرسين وعرض الأستاذ ذكى أن يذهب مع زميله إلى المستشفى وأصر الأستاذ راضى على الذهاب معهما . خرج الثلاثة وتركوا الزملاء في وجوم تام ..

[٣٨]

سكبت يد خفيفة الماء على المارة فى الحارة وسقطت المياه على رأس مها التي صرخت بأعلى صوتها :

- فتح يا أعمى .

ونظرت إلى أعلى فخمنت إن حسين العجلاتي السبب في سكب الماء عليها وصرخت قائله :

- يا حارة الشوم لن أتزوج أحدا من أهل الحارة الذين تسكنهم القذارة . أرني نفسك يا حسين يا عجلاتي.

كانت تنظر إلى أعلى منتظره أن يأتيها ولكنها استمرت تتساءل:

- هل الزواج بالعافية .كل شي بالخناق إلا الزواج بالاتفاق.

التف أهل الحارة حولها، وكانت صدمتها شديدة عندما خرج حسين العجلاتي من دكانه وقال:

- ما الأمر يا ست مها؟

شعرت بالحرج ثم قالت:

- آسفة.

ظهر طفل في الشراعة التي تساقط منها الماء وكان لا يزال يرش بعض الماء.

وقالت والأسف يتملكها :

- سامحني يا حسين

- لا شيء نحو أخوه.

واتجه نحو الطفل وقال:

- أدخل ولا تفعل هذا. سأقول لأمك. لا ترش الماء على أحد .

دخل الطفل. رجعت مها إلى بيتها فتعجب أبوها لعودتها مبكرًا أخبرته بما حدث. وقالت له:

- أود أن أخبرك بشي هام.

- سيتقدم الليلة لخطوبتي فريد بيه.

- هل توافقين عليه؟

- نعم

- وأنا أيضا موافق

- بدون أن تراه

- سأراه بالتأكيد

- الليلة إن شاء الله.هل تمانع أن يأتي معي الساعة الثامنة؟

- كما ترين يا ابنتي .

ارتدت ملابسها وخرجت فوجدت حسين العجلاتي منهمكا في تصليح إحدى العجلات، بينما كان ناصر بياع الفول يتهافت حوله الرجال والنساء وهم يطلبون فوله اللذيذ، كانت نظراتها تنطق بعدم الرضا عن أهل الحارة جميعا وتقول :

- سأريكم يا حوش من ستتزوج مها .سأخرج من هذه الحارة المليئة بالقرف .سأصير زوجة فريد بيه يا جرابيع تعسا لكم لا أدري كيف تحملت المعيشة مع هؤلاء الأوباش..سأغادر هذه الحارة ..للأبد.

[٣٩]

صاحت الأم في غضب :

- أطع كلام أخيك الكبير يا صابر .

كانت مشاجرة حادة قد نشأت بينهما، فصابر يود مشاهدة التليفزيون بصوت مرتفع وأخوه يريد المذاكرة. نهره أكثر من مرة ثم ضربة، وشرع صابر في بكاء لا ينقطع .

أحس إبراهيم بشفقة تدفعه إلى مصالحة أخيه فتقدم إليه قائلا :

- سامحني هل أوجعتك ؟

- نعم يدك كالعصا الغليظة

- هل سامحتني ؟

- لا

- لو لم تسامحني فسأفضحك أمام الأسرة.

- على أي شيء ؟

سكت إبراهيم .قام صابر إليه وقال :

- أرجوك خبرني بأي شيء ستفضحني يا حبيب لمياء

بدا على إبراهيم الغضب وقال :

لست حبيب أحد قال صابر بكل سخرية :

- فلماذا زارتك ؟هه .

احتضن إبراهيم أخيه وقال له :

- إذا كنت أنا حبيب لمياء كما تزعم وهذا ليس صحيح فأنت حبيب .....

صمت قليلا ..فاتجه صابر نحوه وقال له فى براءة :

- هل قرأت الخطاب الذي كنت أكتبه إلى نور

- نعم

- وهل ستقول لأمي؟

- لا .. أخوك رجل ..هل سامحتني؟

- نعم

احتضن الأخوان بعضهما، جاءت الأم ومعها بضعة سندوتشات وقال:

- ربنا هداكم..العبا سويا

قام صابر وقال ناظرا لأخيه :

- أنه أخي الأكبر وأنا المخطئ .

- ربنا يبقيكما لبعضكما ولا يحرمني منكما .

دخل الجد من باب الشقة ووجهه ينطق بكل علامات التفكير، قال إبراهيم :

- هل هناك أخبار جديدة عن العراق .. تكلم يا جدي ما بك ؟

سكت الجد ودخل غرفته فنهضت ألام وسألته:

- هل أنت بخير

لم يرد عليها، ودخل حجرته يفكر. وما هي إلا لحظات إلا وكانت طرقات على الباب، فتح صابر الباب فوجئ بنور أمامه قائلة :

- أستاذ إبراهيم موجود؟

دخلت عندما أخبرها صابر بوجوده وسألته:

- هذه مسالة صعبة جدًا هل تساعدني في حلها ؟

نهض إبراهيم واقفا وقال:

- لا....عندي مذاكرة ولكن صابر عبقري في الحساب وسيساعدك. ثم اتجه إلى أخيه وغمز إليه بعينيه قائلا :

- هيا ساعدها

رفضت نور مساعدة صابر، فتقطع قلبه حزنا، خرجت وصفقت الباب وراءها . دخل صابر غرفة أخيه وقال له :

- المشكلة أنها تريدك أنت

- وهل تستسلم يا روميو ؟ أقصد يا صوميو ...يا صومبيور

- أعرف أنني صغير على هذه الأمور ولكني أحبها

- لا تقلق ستحب غيرها في السنة القادمة.

- لا تقل هذا. إني أحبها .

- لا زلت صغيرًا

- لا ...أنا كبير وأفهم . أنت تموت في الحب . أنت تحب لمياء

- لا

- تحبها

- لا أحبها

ونشبت بينهما مشاجرة جديدة وإذا بصوت الأم يرتفع من جديد.

- أطع كلام أخيك الكبير يا صابر ولا تعطله عن المذاكرة .

[٤٠]

كانت مس نادية تواصل عزفها الحزين فى البهو الكبير بفيلا فريد بيه، ولكنها توقفت عندما لاحظت شرود ذهن راشد فصاحت به :

- ما بك ؟

لم يرد الطفل عليها وإنما هرع إلى المطبخ وأحضر سندوتشا كبيرًا وأخذ يقضم منه، ثم اتجه إلى مس ناديه وقال :

- معذرة تذكرت أنى لم آكل منذ الصباح

- ألست صائما ؟ نحن في رمضان

- لا أستطيع أن أصوم

أرادت أن تسبه وتقول له: (أنت كالبغل) وبسرعة قال راشد:

- لا أحتمل الصيام . ثم إن الفقراء فقط هم الذين يصومون.

قربت منه وسألته :

- هل تصوم ماما ؟

- لا ٠ بابا وتغريد فقط هما اللذان يصومان .

- لا تأكل أمام الناس في رمضان .هيا قم اعزف هذا التدريب.

كان عزفه سيئا، وفجأة جاءتها خادمة وقالت :

تليفون لك يا مس نادية .

- لي أنا ؟

تعجبت نادية ورفعت السماعة فإذا بصوت فريد بيه يقول :

- ما أخبار العزف يا مس نادية؟

- تمام. كل سنة وأنت طيب. رمضان كريم

- من رمضان؟

- أهنئك بشهر رمضان.

- آه

- هل تأمرني بشيء؟

- هل يتحسن راشد في العزف يا أعظم عازفة وأجمل عازفة و... قاطعته قائلة:

- رمضان كريم يا فريد بيه.

- يا ستي الله أكرم أريد أن أسألك سؤالا يتوقف عليه مستقبلي

- مستقبل سيادتك؟

- نعم

- تفضل اسأل . خيرا؟

- نظرت لأجمل يد في العالم،ولأجمل أصبع في الدنيا ولأجمل فتاة في الدنيا و...

- أكمل يا فريد بيه، وماذا بعد؟

- أول أمس نظرت إلى أصبعك ولم أجد دبلة الخطوبة في يدك.

- نعم لقد فسخت خطبتي.

- إذا فأنا أسعد رجل في العالم.

- رمضان كريم يا فريد بيه.

- يا ستي رمضان كريم ولكني أود أن أسأل عن عنوانك .

أعطته عنوانها وهى في قمة الاستغراب من هذا الموقف، كف راشد عن العزف وأخذ يستكمل الطعام بتلذذ غير عادى، كانت تشعر أنه يقبل السندوتش قبل أن يمضغه، نهرته قائلة:

- كف عن الطعام وكمل عزفك السيء

قام متباطئا إلى البيانو وكانت تشعر أن كرشة يسبقه، ضرب بأصبعية فأحدث صوتا غليظا ثم قال لها:

- سأذهب إلى الحمام.

استغفرت مس نادية الله ثم نفخت وأخذت تعزف لحنها الحزين فى صمت..

[٤١]

رمقت زوجة الأستاذ راضى زوجها بتعجب وقالت:

- معقول!! زوجة الأستاذ عادل حامل..إنها مصيبة!

أكد لها زوجها أن هذا ما أخبرهم به الطبيب عندما بلغهم خبر نقل زوجة عادل إلى المستشفى. توجه زوجها إليها وتساءل قائلا:

- ومن قال إن الحمل مصيبة؟

- إنها مصابة بمرض القلب.

- آه.. وكان عادل يؤكد أنه لن ينجب غير طفليه أبدا وأنه لا يفكر في الإنجاب.. أه تذكرت . كان الله في عونهما

- سبحان الله !! كانت تأخذ حبوب منع الحمل بانتظام ولكنها إرادة الله. نعم .

- حكمة بالغة

- ونحن يا رب ..نريد طفلا ..و.. قاطعها وقال :

- كوني مؤمنة قوية الإيمان

- أنا مؤمنة ولكني أخاف عليك

- مم تخافين ؟

- أخشى أن تفكر في الزواج وتتركني

- يا حياتي ..إني أحبك

- ولكن من حقك أن تتزوج أخرى فالعيب منى

- يا ستي لن أتزوج ولن أبحث عن غيرك أنتي حبيبتي وابنتي سأبحث لك عن عروسة .

لن أتزوج..لا يوجد لديك سوى هذا الموضوع تؤلمين به رأسي صباح مساء.

قام غاضبا إلى حجرته وتبعته منسكبة الدمع وقالت انكسارا:

- العمر يمر ومن حقك أن تفرح بطفل يحمل اسمك من بعدك.

قال لها في فكاهة واستظراف :

- اسمي ليس ثقيلا على وأستطيع حمله بمفردي

- لا أريد إلا أن أعطيك حقك شرع الله للرجل الزواج من أربع ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۝٣ ﴾.

- ولكني أحبك والنبي محمد ﷺ ظل مع السيدة خديجة أكثر من عشرين سنه، وكل امرأة تزوجها بعد ذلك كانت لحكمة تشريعية والله يقول يا حبيبتي وَلَن ﴿ تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ ۝١٢٩ ﴾ ويقول ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ۝٣ ﴾ أنت واحدة وأحبك ولن أفكر بغيرك .. احتضن زوجته بكل حنان ورقه فتحت فمها لتتكلم، أغلقه بقبلة وقال لها :

- أنا أحبك كوني عاقلة وإلا .....

قاطعته قائلة :

- وإلا ماذا ؟

- تزوجت ؟

- نعم ..امرأه جميلة أحبها. أنت. إني أعشقك. أنت أمي وزوجتي وابنتي وحبيبتي وعشيقتي

ابتعدت عنه قائلة :

- هكذا تدخل السجن

فقال لها وهو لا يدرك أنها تهذر :

- لماذا ؟

- لأنك بهذا تصير متزوجا لخمس نساء أم وزوجة وابنة وحبيبة وعشيقة والقانون والشرع لا يسمحان إلا بأربع.

أغلق فمها بقبلة أخرى، وأطفأ النور في حين كان ذكي مدرس الفيزياء يضيء النور في حجرته ويضع خطة ليضع ابنة أخته في طريق راضى حتى يزوجها إياه، محاولا أن يكسر مسألة المبدأ التي فلق بها راضى رؤوس زملائه ..

[٤٢]

دخل فريد بيه الحارة بسيارته الفخمة وبجواره مها، كانت رأسها مرتفعة إلى أعلى مختالة بالسيارة وبصاحبها، كانت تشعر أنها أفضل من أهل الحارة جميعا وكأن نظراتها تقول .."هذا من سأتزوجه يا حارة الحثالة" كانت الحارة مكتظة بالناس، كما أعاق من مرور السيارة التفاف بعض الصبية حول السيارة، ولم ينصرف هؤلاء الصبية إلا بعد أن رمى لهم فريد بعض النقود فانشغلوا بجمعها .

نظر ناصر إلى السيارة بكل أسى وقارن سيارة فريد بعربته التي يبيع عليها الفول، ولكنة وجد الفرق شاسعا، اقتربت مها من فريد وقالت:

وهذا بياع الفول المتميز في حارتنا .أنه حاصل على بكالوريوس التجارة .انتظر حتى أذيقك طعم فوله .

فتحت نافذة السيارة من جهتها وطلبت فولا من ناصر الذي نظر إليها بتعجب وصاح وهو يقول غاضبا :

- انتهينا من بيع الفول

ضحكت عندما رمى فريد ورقة بعشرة جنيهات وقالت:

نسيت أن أعرفكما ببعضكما ..فريد بيه خطيبي ..ناصر بيه أجدع بياع فول في المنطقة .

تعالت ضحكتها عندما تحركت سيارة فريد ومرت بحسين العجلاتى الذي رمقها باحتقار.

رحب والد مها بالضيف قائلا :

- شرفت حارتنا المتواضعة

- تشرف الحارة بأهلها

- اسمع يا فريد بيه .

- أسمع أنت يا عمى

تعجب والد مها، فلقد كان فريد في نفس سنه تقريبا، ود فريد لو سحب كلمة عمى، ولكنة لا يستطيع فواصل كلامه :

- يسعدني أن أتقدم لخطبة ابنتك ..لا ..إنى متعجل أريد أن يكون الزواج في أسرع وقت .

كانت مها ترسم على وجهها ابتسامة السعادة وهى واهمة قال الأب متصنعا الجدية :

- والله يا ابني أرى أن تأخذ وقتك وتفكر، ولن نجد لمها أفضل منك . أرى أن تكون الخطبة سنة أو سنتين لتدرسا بعضكما وتتعارفا عن قرب.

- أنا متعجل

نظر الأب إلى ابنته وقال :

- ما رأيك يا مها ؟

أطرقت إلى الأرض ولم ترد خجلا ، فقال:

– السكوت علامة الرضا خير البر عاجله.

وانطلقت الزغاريد من شقة مها، وكانت علامات السعادة بادية على وجهها، في حين كان الغضب والغيظ يحيق بكل من ناصر وحسين اللذان يجتمعان لأول مرة على مائدة الحزن والإحساس بخيبة الرجاء في حين تعج المائدة في شقة مها بأصوات الأكلين والشاربين والأطفال الذين يتراقصون على أنغام الموسيقى

[٤٣]

صرخت لمياء في وجه إبراهيم قائلة :

– لا يعقل هذا إنك تطاردني في كل مكان.

عجزت تعبيرات وجه إبراهيم أن توضح لها مدى كراهيته لها ولكنه قال :

– كنت تحبينني

– كنت بلهاء وعبيطه

– اعترفت لي بحبك

– اعتقدت أنك إنسان تحيا حياة لائقة لا حياة الجوعى والشحاذين!!

- أنا إنسان وأفضل منك ومن أهلك

كانت تحب فيه تفوقه الظاهر ولسانه المنطلق الذي يستطيع استقطاب العشرات بل المئات من الطلبة في خطبة بليغة، صاحت فيه قائلة :

- كيف أقدمك لأهلي يا ابن الحارة ؟
- أنا أفضل منك ومن أهلك ومن أهل منطقتك
- أبي رئيس تحرير
- سأكون رئيس وزراء يوما ما
- لا تحلم هكذا فالأحلام لو كانت جيادا لكان الفقراء هم فرسانها
- أنا أرثى لحالك
- لماذا؟
- طاردتني حتى أحببتك والآن تتخلين عنى
- أنا عمليه!!
- أنت مغفلة

وتركته وانصرفت، أخذ يفكر في كلامها .كم من الوقت سيمر حتى يستطيع أن يجد فتاه تملا الفراغ الذي سيخلفه بعدها عنه؟ أراد أن يتهمها وأن يتهم طبقتها بالظلم. يريد أن يخبرها بأنها ظالمه وأنها ستدخل النار. إنها لن تظلمه فقط ولكنها ستظلم فتاه بريئة أخرى سيتزوجها يوما ما. امتلأت نفسه باليأس وهو يخاطب نفسه.

- أني لك أن تتزوج !! أمامك عشرين عاما .. وعندما تتخرج هل ستعمل؟ كان زميلك في الثانوية غبيا وكنت أنت الأول. صار نجما من نجوم الكره تراه على الشاشات يملأ السمع والبصر والفؤاد على الرغم من رسوبه، ولقد نجح وصار مشهورا .إنه يتذكر زميله المخنث الذي صار نجما آخر في ميدان الفن والغناء وصار بطلا فى الأفلام المسلسلات . إنه كثيرا ما يذكر للآخرين أن هذين النجمين كانا معي !! لا أحد يصدقه . تعسا لي ..خسارة كبرى أحاقت بي . أضعت عمري.

اقتربت منه إحدى زميلاته في اتحاد الطلاب وقالت:

- رتبنا لمظاهرة اليوم
- تبا للمظاهرات
- هل جهزت خطبتك؟
- تبا للخطب والشعارات
- رئيس اتحاد الطلاب يريدك
- تبا لرئيس اتحاد الطلاب
- ما بك؟
- تبا لي
- ماذا حدث لك ؟
- حدث ما كان يجب فعله منذ زمن

لقد لمعت في ذهنه فكره هائلة، لقد قرر بالفعل أن يترك الجامعة ، كان يقول في نفسه متحسرا: "خسارة هذه الأيام التي أضعتها هنا . لقد تغيرت الدنيا، ويجب علينا أن نتغير، كم جنيها سأقبض إذا عملت بعد التخرج؟ في فيلم واحد أو مسلسل واحد سأحقق كل أحلامي . سأواصل لعب الكره، سأتجه إلى عالم الفن والشهرة والمال. "لقد كنت مغفلا "

طالت وقفة زميلته أمامه، قالت في هدوء: "بغداد تحترق" شعر أن نفسه تحترق، وصاح فيها :

- وأنا مالي ..لتحترق..لست السبب.
- سننظم مظاهرة حاشدة فيها كل التيارات السياسية.
- سيفرقكم الأمن .
- وقضيتنا.
- خسرناها ولا استئناف لنا .
- لشد ما تغيرت!!
- هي الدنيا .. تموت العراق .
- أفق لنفسك . قل تحيا العراق.
- ألم تمت فلسطين وأفغانستان وليبيا؟

- انظر إلى الشباب المتحمسين في هذه المظاهرة.

كانت حشود الطلاب تسير في جنبات الجامعة، في حين نظر إليهم إبراهيم وصاح :

- شباب خائب .

رفع صوته قائلا :

- تحيا الحكومة.

أعطى ظهره للمظاهرات، فوجد حديقة غناء تضم بعض العاشقين، من يمسك يد زميلته ومن يمطرها بكلمات الحب ومن يلتصق بزميلته وتبارك زقزقة العصافير هذا المشهد الرائع. تخيل نفسه غبيا وقال :

- هنا الأمن يحرسهم ولا يقترب منهم، والأمن هناك يضرب المتظاهرين .. وصلت أصوات المتظاهرين وحشودهم إلى مكانه بعد ساعة. أعطاهم ظهره وانصرف اتجاه باب الخروج وصاح:

- أغبياء لا تفهمون.

لم تعد شعارات المتظاهرين تهز شعرة واحدة من رأسه كانت كل صيحة من المتظاهرين تغيظه، كانوا يصرخون"تعيش العراق" وكان يصرخ :

- تموت أفكار القدماء الأغبياء . سيموت العراق ويموت صدام ويموت كل معارض.

دخل وسلم على قائد الحرس وقال :

- أغبياء يا أفندم لا يفهمون.

- غير معقول .....هل أنت الذي تقول هذا ؟

- نعم ..لماذا سنحرق أنفسنا بدون نتيجة.

- ألست مستاء لما يحدث في العراق ؟!

- فلتحترق العراق وليحترق صدام وليحترق بول.

- من بول ؟

- أقصد بوش

- لشد ما تغيرت !!

أطرق قائد الحرس صامتا وسأله إبراهيم :

- متى ستضربونهم وتطلقون القنابل المسيلة للدموع.
- إذا حاولوا الخروج من الجامعة .
- معكم حق .
- نحن نحافظ عليهم حتى لا تندس فئات مدمرة وسطهم .
- هل تؤيدهم أم تؤيد الحكومة .
- لهم الحق في التعبير عن غضبهم لما يحدث في العراق ونحن أيضا غاضبين .
- أريد أن أطلب منك معروفا .
- تفضل .
- أريد إن أرجع إلى بيتي قبل الاشتباكات لأني لن أجد مواصلات سأضطر للسير على قدمي إلى بيتي.
- لك ما تريد

انهار إبراهيم تما ما، ولم تبق فيه ذرة واحدة يمكنها مقاومة هذا الانهيار، ولن تفيده أية محاوله ليلملم نفسه المتبعثرة ....

[٤٤]

كانت هتافات التلاميذ تؤذى راشد وتؤلمه كثيرا، لقد اكتشف صابر أن راشد يأكل ويشرب في دورة المياه القذرة بعيدا عن عين التلاميذ الذين كان أغلبهم صائمين .

جمع صابر زملاءه وانتظروا أمام دورة المياه إلى أن خرج راشد بأصداغه الممتلئة وكرشة الضخم .قال صابر له في صوت آمر :

- أخرج لسانك

ولما أخرج راشد لسانه رآه الطلاب أقرب إلى الحمرة فصاح صابر وزملاؤه:

- يـا فـاطر رمضـان يـا خاسـر دينـك ..... الكلبـة السـودا تقطـع مصارينك.

وردد التلاميذ هذا أكثر من مرة، تكوم راشد باكيا وقال :

- إني مريض ولا أقوى على الصيام .

توجه إليه صابر وقال :

- مريض!! إنك كالعجل تدير ساقية .
- لا يغريكم جسدي إنى مريض صدقوني.

لم يمنعهم هذا من ترديد هتافهم ضد راشد، ارتفعت أصواتهم إلى أن جاء أحد المدرسين وقال لهم :

- ما لكم به .
- فاطر يا أستاذ .
- يقول إنه مريض وليس على المريض حرج .

انصرف التلاميذ، وقال راشد للمدرس :

- أشكرك جدا وسأبلغ بابا بما فعلته .

ثم قال للمدرس في لهجة مؤدبه :

- هل يمكن أن تعطيني درسا خصوصيا ؟
- لا ..
- لماذا ؟
- لأني مدرس تربية رياضية .

كان صابر يستمع إلى هذا الحوار فلم يستطع أن يكتم ضحكة خرجت رغما عنه.

ولما انصرف المدرس، توجه إليه صابر قائلا :

ألا زلت تظن أنك أحسن منى ؟

- لا يا سيدي. أنت أفضل منى في كل شيء .

أراد أن يسجل صابر هذا الاعتراف حتى يسمعه تلاميذ الفصل كلهم ، وفى الحصة التالية حصل صابر على الدرجة النهائية في

الحساب وكانت عيون الإعجاب تحيط به من زملائه البنين والبنات إلا انه كان يأمل فى نظرة واحدة من نور التي كانت تبتعد عنه كثيرا ولا تكترث به.

اقترب منها وسألها :

- هل هناك مسائل لا تفهمينها ؟
- شكرا .
- أريد أن أساعدك .
- شكرا .

كانت تفكر بشكل جدي، صاحت به قائلة :

- أبعد جدك عن طريق أمي.
- وأنا مالي ؟
- إنه يريد أن يتزوجها
- وأنا أيضا أريد أن ...

كان يريد أن يقول لها وأنا أيضا أريد أن أتزوجك ولكنه توقف فجأة .

وقع الخبر عليها كالصاعقة عندما أخبرتها أمها بقرار الزواج من مرزوق جد صابر. في البداية سعدت لأنها ستصير قريبه من إبراهيم وستتوطد العلاقة بينهما ولكنها رفضت فرفعت الأم صوتها قائلة: "كل شيء ترفضينه .. قلت لا أوافق على أن نترك هذه الشقة ووافقتك، فلم اعتراضك على زواجي" ؟

كادت نور أن تبكى عندما تذكرت والدها. هل تنسى أمها والدها بهذه السرعة ؟! نظرت نور إلى صابر وقالت :

- هل توافق على زواج جدك من أمي ؟

أفهمها أنه صغير ولا دخل له بهذه الأمور إلا أنها ردت قائلة:

- أنت صغير ..لا كلام لي معك سأرد على أخيك الكبير

صممت على أن تخبر إبراهيم وبالإضافة إلى هذا سوف ترى عينيه وتسعد بالحديث معه، وقد يرق قلبه لها، قد يحنو عليها، ولكن ماذا

تفعل إن كان موافقا على زواج جده من أمها، لمعت عيناها بفكرة جديدة وقالت لنفسها :

"في هذه الحالة سأطلب أنا أيضا الزواج من إبراهيم .. واحدة بواحدة يا أمي ".

واختمرت الفكرة في ذهنها، انصرفت وتركت صابر الذي سألها بصبيانية واضحة ..

- ما بك يا نور ؟

تركته وانصرفت وقالت :

- لا كلام لي مع العيال.

- لست عيلا

- أذهب وذاكر دروسك جيدًا لعلك تكون الأول

- وهل يهمك هذا ؟

- لا شيء يهمني على الإطلاق

- نذهب إلى البيت سويا ؟

- لا أمشى مع العيال

ذهبت وتركته مع فرحة لم تكتمل ولكنه نظر إلى اسمه في لائحة الشرف .

[٤٥]

كانت مس نادية تقرأ الجريدة بشغف وانتباه عندما أتاها صوت أمها متسائلة :

- ألا تشعرين أنك تسرعت يا نادية

ألقت نادية الجريدة على المائدة ونظرت لأمها قائلة :

- لا يا أمي أنت التي ضغطت على منذ البداية . نصيف لا يناسبني

كانت الأم تعد الأرز للطهي فقالت لها متحسرة :

- الأيام تمر وأخشى عليك

كانت نادية قد جاوزت الثلاثين بقليل ؛ وكانت الأم ترى في نصيف عريس مثاليا إلا أن نادية كانت تر فضة لبخله الشديد .نظرت نادية إلى أمها قائلة :

- إنه بخيل لا يطاق .اسمه نصيف وليس (نصف) لو كان أبوه غير بخيل لأسماه (كامل) لم أجد أبخل منه إلا كلبة يزيد .

ضحكت الأم وقالت :

- ما كان يجب عليك أن ترمى الدبلة في وجهة .

- يا ماما .. راح الكلب وسيأتي السبع .

- أخشى عليك من مرور الزمان

- لا يهم يا ماما ..إذا قال الناس أنى عانس أفضل من أن أكون مطلقة

قطعت حوارهما طرقات على الباب، دخلت الأم المطبخ لتجهز الغداء، وفتحت نادية الباب فإذا بها تجده أمامها واقفا في هدوء وهو يقول :

- هل يمكن لي أن أدخل ؟

- لا

- لا أريد أن أكلمك وأريد حماتي

- كانت حماتك

وارتفع صوتهما فخرجت الأم من المطبخ وقال نصيف :

- أيرضيك ما فعلته نادية ؟

لم ترد الأم ؛ نظر إليهما نصيف بعلامات الاستعطاف وقال:

- لقد رمت الدبلة في وجهي

كاد صبر نادية أن ينفذ فقالت له:

- أخشى إن تزوجنا أن تعد على أنفاسي أو اللقيمات التي آكلها.

اقترب من حماته وتمسح بها قائلا :

- سأتغير من اليوم

ذهلت مغتاظة من تصرفه الصبياني وقالت :

- يا أخي لا .. أخرج قبل أن أرمى المائدة فى وجهك ..أنا عفاريت الدنيا كلها تتراقص أمام عيني .

كاد نصيف أن يبكى ولكنه تماسك قائلا :

- نصيف الذي كنت تعرفينه مات . لقد صرت إنسانا جديدًا

رفعت نادية المائدة وقالت :

- إذا لم تخرج خلال دقيقتين فسأرمى هذه المائدة في وجهك .

خرج مذعورا والأم تكاد أن ترتمي على الأرض من الضحك شاركتها نادية الضحك وقالت :

- رجال لا يأتون إلا بالعين الحمرا

لم تكد تمر خمس دقائق إلا وكانت هناك طرقات أخرى على الباب .

دخلت نادية المطبخ وأحضرت سكينا وقالت لأمها :

- افتحي الباب لأني لو فتحت الباب سأقتله .

- هدئي أعصابك يابنتي

- افتحي الباب يا ماما

اتجهت الأم نحو الباب وفتحته ،ففوجئت برجل لا تعرفه. حدثت نادية نفسها بأنها ستقتل نصيف لا محالة. صرخت بأعلى صوتها قائلة وهى تتجه نحو الباب:

- نحن لا نريدك يا غبي

كانت المفاجأة كبيرة جدا إنه ليس نصيف إنه فريد بيه

قال في هدوء :

يبدو أنني جئت في وقت غير مناسب

سقط السكين من يد نادية وقالت في هدوء :

آسفة ... تفضل يا فريد بيه

لم تمر لحظات إلا وكانت الأم قد أطلقت الزغاريد معلنة عن خطبة ابنتها لفريد بيه.كانت الأم ترفل في بحر من السعادة وكذلك نادية، إلا أن فريد بيه ظل واجما لحظات يفكر.

إنه يفكر بعمق ويتساءل في نفسه قائلا:

- ترى من ستكون العروس الرابعة؟

ثم أفرغ محتويات كأس الشربات في جوفه دفعة واحدة وهو يقول لنفسه وسترين يا علياء وعدتك بالزواج من أربع نساء وسأفي بوعدي ثم أطلقك .

[٤٦]

نظرت زوجة عادل إليه في ضعف وقالت :

- آسفة على ما سببته لك اليوم

- لا يهمك

كانت عيناه تتحاشى النظر إليها . لقد تغيرت زوجته في الفترة الأخير بشكل جعله يحتقر نفسه. إنها لم تعد تغالي في طلبات البيت أو الأولاد ، كما أنها صارت تتفانى في خدمته ورعايته وإرضائه مما جعله يشعر بالتضاؤل .

هل يعقل أن تتودد إليه زوجته ويخونها حتى بفكره ؟ إنه يحب فتاة في سن أولاده، إنه لم يجبرها .هي التي تعانى من مشاكل أمها وأبيها وتريده بجوارها. إنها تعلم أنه متزوج ولدية اثنان. إنه لم يخدعها. هي التي أحبته أولا ..ألم يكن من واجبة كمدرس أن يمنعها عنه ويمنع نفسه عنها ؟ ولكنه كان يريد أن يزيد من دخلة بالدرس الذي سيعطيه لها ولأخيها . أخذ يفكر ولم يجد لنفسه مبررا .

نظرت إليه زوجته وقالت:

- والله عملت كل الاحتياطات ولكن حدث الحمل

- الحمد لله ربنا يلطف بنا .

جاء جرس التليفون حزينا، خشي عادل إذا رد أن تكون تغريد، فلم يرد. جاءه صوت ابنته :

- تليفون لك يا بابا

- من؟

- راشد

هب واقفا وأمسك بالسماعة قائلا :

- ألو

- ألحقنا يا أستاذ عادل

- ما الأمر ؟

- تغريد في المستشفى

- ماذا حدث

- صدمتها سيارة

وقعت السماعة من يده، نادته زوجته متسائلة عن الأمر فقال:

- طالبة لدى صدمتها سيارة

- أذهب واطمئن عليها

- لن أذهب

- أرجوك أذهب

رن التليفون مرة أخرى فرد عادل عليه فوجد راشد يقول :

- إنها تطلب أن تراك...

أطلق عادل لساقية العنان. وصل إلى المستشفى ليجد تغريد تلفظ أنفاسها الأخيرة ...أغمض عينيها وشرع في بكاء ذي نحيب مرتفع .

حاولت علياء هانم أن تهدىء من روعه، وطلبت زوجها على هاتفة المحمول فرد وكانت تحدثه وعيناها تدمعان.

- نعم

- ما أصوات الزغاريد والأفراح هذه

- الحق ابنتك

- لا ..... ليست بخير

- تعال فورا

- كفاك ما أنت فيه . لقد ماتت تغريد ...

لم تستطيع علياء تمالك نفسها من البكاء. وانفجر راشد باكيا لأول مرة على أخته التي لن يراها ثانية بعد اليوم . انصرف فريد من حفل خطبته في هدوء وأمر السائق أن يذهب إلى المستشفى ... لم يحتمل أن ينتقل في لحظة واحدة من سعادة كبيرة إلى هم وغم لا يدرى ماذا يفعل به طلبت نادية أن تذهب معه ولكنه رفض متعللا بأن السائق معه .

وانصرف فريد بيه ودمعاته تأبى أن تنزل على خده، ولكن قلبه كان يبكى دمعا وينفطر حزنا، كان عادل يشاركه الحزن والألم بقلب يتقطع .

[٤٧]

قال مرزوق لجمالات :

- أكنت جادة في طلب الزواج ؟

- طبعا يا حاج . لا هذر في ثلاث الزواج والطلاق والعتاق.

بلغ الخجل من الرجل مداه فقال لها .

- لا أستطيع أن أفاتح ابني في الموضوع . هل أقول له أريد أن أتزوج بعد هذا العمر الطويل

- لا تبالغ في سنك . أنت أكبر منى بخمس عشرة سنة فقط .

- هل تجاوزت الأربعين .

- نعم

- لا يبدو عليك أثر السن .

- لا تحرجني يا حاج مرزوق .

إنها ترغب في حماية رجل، وأرادت أن تعجل من موافقته فقالت :

- سنذهب سوياً لعمل عمرة وسننفق كل المال الذي معي في طاعة الله . سنبنى مسجدًا كبيرًا ومستوصفًا أكبر بجواره .

- إنك تحلمي ياعزيزتي .

- أرجوك وافق .

- سأحدثهم في الأمر .

تناول مرزوق طعام الإفطار مع أسرته، كان يخشى من أن يتحول الموضوع إلى تهريج أو أن يقول إبراهيم :(يا جدي .. لا يهمك أنت أحسن النساء تتمناك ولن أقبل أقل من مائة ألف مهرًا لك) .

أو تقول زوجة ابنه : (وراء كل ساه داهية، المرأة عيناها عليك) .

أو يقول متعب: (العريس ابننا والعروسة ابنتنا وطوبى لمن زوج رأسين في الحلال).

ولم يحدث هذا قط فلقد كان إبراهيم مشغولاً بالموعد الذي سيذهب إليه بعد الإفطار مع نجم الغناء، زميله السابق في الإعدادية فقد يلج عالم الفن ويحفر اسمه فيه بعد أن قرر أن يترك الكلية، وكان صابر يفكر في قول نور. سأل جده في تعجب مصطنع .

- أحقاً ستتزوج الست جمالات ؟

غض الجد طرفة حياء .

وقع الخبر على إبراهيم ووالده كالصاعقة، وفجأة قطع التليفزيون إرساله المعتاد وبث خبراً عن غارة جوية على مخيمات الفلسطينيين. أغلق إبراهيم الجهاز وقال:

- وما ذنبنا نحن؟ هل نذهب ونحارب معهم؟ دعونا نتناول إفطارنا بهدوء .

أما متعب فكان صامتاً يود أن يحدث أسرته عن تفكيره في أن يكون جاسوسا لفريد بيه، فترك الطعام وقام وهو يقول:

- كيف نأكل وغيرنا جوعي ومحاصرون ؟

ألح عليه إبراهيم أن يجلس فقال له :

- يا أبى لهم الله .

قال متعب :

- نعم .. لهم الله ولنا الله أيضاً.

نهض إبراهيم وقال وعيناه مغرورقتان بالدموع :

- لنا الله يا أبى .

[٤٨]

باءت كل محاولات الأستاذ ذكى بالفشل، ولم تستطع ابنة أخته سالي المدرسة المطلقة أن تنتزع إعجاب الأستاذ راضى الذي كان حبه لزوجته يملأ قلبه وإيمانه يكسبه وقاراً وحماية من ألاعيب ذكى وقريبته.

تقدمت منه وقالت : ماذا ستفعل لو اغتصبتك ؟

وحاولت وضع فمها على فمه، إلا أنه أصيب بالدهشة التي ألجمته فلم يستطع أن يتحرك، احتضنته ووضعت فمها على فمه وصدرها على صدره .

خلص نفسه منها بأعجوبة وصاح :

- ماذا تفعلين يا مجنونة ؟

- أنت الذي أصبتني بالجنون .

- أنا ؟

- نعم حبك أضاع عقلي .

- يابنتي ...

قاطعته ولكنه لم يستمع إليها وقال :

- أنا متزوج وأحب زوجتي حباً فوق الوصف .

- وأنا أحبك وسوف أسحر لك حتى تحبني .

- هذا لن يحدث لأني سأترك المدرسة .

كان صادقاً فيما يقول، ففي ليلة أمس بشرته زوجته بإعلان في إحدى الجرائد يطلب مدرسين مساعدين في الجامعة، تهلل وجهه بالبشر وشكرها ودعا الله أن يكون الخير دائماً على يديها ومعها .

قالت الفتاة اللعوب سالي :

- وتترك تلاميذك ؟

- سيكون لي فى الجامعة الكثير من الطلاب .

- وتترك محبينك ؟

اقتربت منه محاولة التغلب على فشلها في المرة الماضية.

ولكنه نهرها وأبعدها وحاول الخروج، إلا أنها احتضنته من الخلف وأحاطت عنقه بذراعيها وأعاقته من الخروج وفى هذه اللحظة كان الأستاذ ذكى على الباب وكأن هناك اتفاقا بينه وبين ابنة أخته المطلقة على اصطياد هذا العريس المسكين.

فدخل متظاهراً بالغضب ، قالت سالي :

- سامحني يا خالي .

صفعها على وجهها بقوة وقال متصنعًا الغضب :

- فاجرة .

تدخل راضى ليمنعه إلا أن ذكى قال :

- الله يا أستاذ المبادئ .

- حاول أن يفتح فمه ليتكلم إلا أن المدرسة اللعوب قالت:

- كان سيطلب يدي منك اليوم يا خالي .

كانت كاذبة إلا أن راضى لم يتحدث،وأطلقت المدرسة زغرودة فانتشر خبر خطبتها في المدرسة كالهشيم،وتقدم المهنئون يباركون خبر الخطبة السعيدة فى حين كانت عينا راضى تذرفان الدموع وكان الخوف يملأ قلبه من أن يصل الخبر إلى زوجته ولكن خوفه تحول إلى حقيقة فلقد علمت زوجته .

[٤٩]

لم تتغير حياة فريد كثيراً عما كانت عليه فلقد نفض غبار الحزن عنه سريعاً وواصل حياته السابقة. كل ما تغير أن كراهيته لزوجته قد زادت ولم يعد يطيق أن يراها،وبادلته كرهاً بكره .

وذات ليلة كان يوصل مها إلى بيتها فأبلغها برغبته أن يتم الزفاف في أقرب فرصة، وافقت والسعادة تغمرها، قبلته من فرط سعادتها، ودعته إلى النزول معها لإبلاغ أبيها بالخبر .

وعندما عاد ليركب سيارته فوجئ بسرقة السيارة، وانطلقت صرخة منها:

- يا حارة اللصوص .

انطلقت ضحكات ناصر بياع الفول، فلقد كان يعرف من سرقها . إنه سيد عثمان . والليل كان الموعد. كان سيد عثمان يعتقد أنه لا يستطيع أن يقوم بالمهمة بمفرده .

التقى إبراهيم بناصر بياع الفول وسيد عثمان .

كان إبراهيم يرى في ناصر مثلاً أعلى للكفاح، فبعد تفوقه في دراسته اشترى عربة الفول، ولكن ماذا ينفع الكفاح في هذه الأيام العجاف ؟

أخذ إبراهيم يقص عليه كيف أن المطرب الشاب عامر وحيد رفض استقباله، وعندما ألح على هذا النجم الذي يخدع الجماهير بابتساماته الزائفة في لقائه مع المذيعات ويعبر عن رهافة مشاعره، استقبله ولكنه تظاهر بأنه لا يتذكره ..

خرج من الفيلا وهو في ألم كبير. وحكى ناصر عن فشله في حبه لمها، كما حكى إبراهيم عن فشله في الحب أيضًا وكيف أن لمياء تغيرت عندما اكتشفت حقيقة الطبقة التي ينتمي إليها والفارق الشاسع بين هذه الطبقة والطبقة التي تنتمي إليها .

أما سيد عثمان فكلما تسأله علياء هانم عن مرور الأيام المحددة يقول لها :

- كنت أنقل لك الأخبار ولكني الآن أخطط لسرقة كبيرة. وهذا سيستغرق وقتاً طويلاً ويلزمني بعض المساعدين.

أخبر ناصر وإبراهيم أن علياء هانم قالت له :

- وما رأيك أن ترتفع النسبة إلى عشرين في المائة.

- رد عليها قائلاً :

- كيف يا ست هانم ؟

- تقترن السرقة بالقتل .

- قتل ؟ ومن سأقتل يا ست هانم ؟

- تقتل فريد الهلباوى .

ظل جسده يرتجف إلى أن قابل إبراهيم وناصر . وإذا بحسين العجلاتي يخرج من وراء سيارة ويقول :

- استمعت إلى كل كلامكم وسأبلغ عنكم .

ضحك ناصر بصوت مرتفع وقال :

- تعال وانضم إلينا فكلنا في الهم سواء. كنت غريمي في حب مها، ولكنها ستتزوج فريد، أنت الآن صديقي. تعالى يا رجل فلقد أجتمع المتعوس بخائب الرجاء.

أخرج سيد عثمان زجاجة خمر وجرع جرعة وقال :

- في صحتكم .

أخذ إبراهيم الزجاجة محاولاً أن يكسرها ثم قال :

- في رمضان ؟ حرام شرب الخمر فى رمضان .

لم يستمع أحد لكلامه، ودارت الزجاجة عليهم جميعًا. ساروا يترنحون طيلة الليل. سرقوا الطبلة التي كان يدق عليها المسحراتي ثم أوسعوه ضرباً وساروا فى غيهم ولم يستمعوا إلى آذان الفجر الذي جاوز السماوات العلا، وسقط بعضهم في الطريق وكان رواد المسجد إلى صلاة الفجر يبصقون عليهم ويركلونهم بأقدامهم وهم يتجهون إلى الصلاة مستعيذين بالله من الشيطان الرجيم .

[٥٠]

أحست زوجة الأستاذ راضى بطعنة نافذة في صدرها عندما وصلها خبر خطبة زوجها. دمعت عيناها. إنها تتوقع أن يحدث هذا في يوم ما، من حقه أن يتزوج وأن تكون له سلالة، ولكنها كانت غاضبة لأنها عرفت أن راضى يخدعها بكلامه المعسول وحبه الزائف. جمعت ملابسها وعزمت على ترك البيت لزوجها حتى يأتي راكعاً إلى بيت أبيها لترضى عنه وتعود معه .

ولما سمعت صوت خطواته تقترب من الشقة خبأت حقيبة ملابسها في الدولاب وكفكفت دموعها. ونظرت في المرآة وأصلحت خصلات شعرها المتهدلة على وجهها.

تظاهرت أنها لا تعلم شيئاً، كانت تحدثه ولا يقوى على النظر إلى عينيها. سألته في هدوء:

- هل أحضر لك السحور ؟

- لا .. شكراً لك، متى تتقدم بطلبك لتدرس في الجامعة ؟

- الأسبوع القادم .

- خذ حذرك من فتيات الجامعة إنهن جميلات .

- لن أقلق بشأن طالباتي وطلابي .

دخل لينام فتبعته قائلة :

- ما رأيك في الرجل الذي يكذب ؟

أحس أنها تقصده ، تردد قليلاً ثم نظر إليها في حب صادق وقال :

- رجل ناقص .

كان يتحاشى نظرات عينيها لأنه يشعر أنها تحاصره، أراد أن يعترف لها بخطبته وأراد أن يشرح لها أن هذا الأمر قد تم رغما عنه. قالت في حزم :

- وجدت لك عروسة لقطة.

في كل مرة كان يجادلها ويقنعها بأنه لا يريد الزواج وأنه يهيم بها حباً. وفى هذه المرة لم يستطع أن يفتح فمه. قال لزوجته وهو يضرب كفاً بكف :

- أتؤمنين بوجود مظلومين في الحبس ؟

- نعم .

- هل تعلمين قصة النجار .

- لا .

أخذ يحكى لها قصة ذلك النجار الذي أتته امرأة قد تزوجت حديثاً، وكانت تسكن مع زوجها في بيت قريب من السكك الحديدية وكان كلما مر قطار يهتز البيت بما فيه ، ويقع الدولاب .

هبت إلى النجار وطلبت منه أن يصلح هذا الدولاب. ولما جاء النجار إلى بيتها وجد الدولاب قائماً، فطلبت منه أن ينتظر إلى أن يأتي

القطار ويهتز البيت والدولاب ليحاول إصلاحه، قال من الأفضل أن أنتظر داخل الدولاب حتى أرى ما يحدث من الداخل، وفى هذه الأثناء جاء الزوج، فارتبكت المرأة وأغلقت الباب على النجار. وعندما أراد الزوج أن يغير ملابسه ، فتح الدولاب فوجد النجار، وإذا بالنجار يقول له :والله لو أقسمت لك أنني أنتظر القطار هنا ما صدقتني !!

كان يحكى لها القصة وهو يتحاشى النظر إليها وعيناه على الأرض. ضحكت الزوجة وقالت :

- ليس في الحبس يعيش المظلومون فحسب وإنما قد يعيشون في الدولاب أيضا.

كفت عن الضحك وقالت في تصنع للجد :

- ولماذا اللف والدوران ؟

فتح فمه يتكلم إلا أن الفرج قد جاءه ..رن جرس التليفون قامت زوجته وردت عليه ثم قالت :

- تليفون لك يا أستاذ راضى . صوت أنثوي يريدك .

قام في كسل يرد على الهاتف. خمنت زوجته أن خطيبته تود محادثته . رفع السماعة وقال بصوت منخفض :

- الو .

- حاضر

- يعنى فسخت خطبتنا ؟

- ومن العريس الجديد؟

- فريد بيه ..رجل محترم

- لا ..لن أخبره ..ليست بيننا أية مشاعر .

- أبلغي زوجتي . أنها معك .

كاد يطير فرحا . فلقد رأى فريد بيه سالي وأعجبته وقرر أن تكون زوجته الرابعة !! أخذ يحمد الله وزوجته غير مصدقه عندما أخبرها بحقيقة الخطبة المزعومة . وقال لها :

- إن الحبس مليء بالمظلومين .

- سامحني لقد ظلمتك أنا أيضا.

- أنا احبك ولا يمكن أن انظر لامرأه غيرك . هل كنت تعلمين بهذا الأمر ؟

- نعم ..أولاد الحلال في كل مكان .

- ولماذا لم تتركي البيت ؟

- لأني احبك ولقد وعدتك ونحن في فترة الخطوبة ألا أغضب إلا في بيتي وعلى فراشي .

- الله أكبر ..جاء الحق وزهق الباطل.

احتضن زوجته في حنان ، بكت طويلا ثم قالت :

- سامحني

قبل رأسها ثم طلب لها الهداية من الله ، ودعا الله في نفس اللحظة أن يرزقها بذرية طيبة.. وما أن انتهى من دعائه إلا كان صوت المؤذن يعلو معلنا دخول وقت صلاة الفجر وهطلت بعض والأمطار الخفيفة..

[٥١]

كانت الست هنية قد انتهت من إعداد طعام السحور، ودخلت توقظ إبراهيم، فلم تجده في فراشه. إنها أول مرة يبيت خارج البيت . انقبض قلبها وسألت صابر فأجابها:

- إبراهيم ربما يذاكر مع أصحابه

تذكرت الأم حماها مرزوق فقال صابر :

- إنه محظوظ. إنه يزور الكعبة في رحلة العمرة مع الست جمالات ونور. ليتهم أخذوني معهم .

- غدا تكبر وتعتمر وتحج.

- في المشمش .. بعد عمر طويل. لا أعتقد إن هناك أي أمل في هذا.

دخل إبراهيم شقته مترنحا، تركت الأم ما في يدها، وهبت ملهوفة عليه، سألته :

- ما بك؟ أين كنت ؟

لم يرد عليها، دخل حجرته وتمدد على سريره بلا حراك ، ولم يسمع لأي كلمة من أمه. رفعت الأم بصرها إلى السماء ودعت الله أن يحفظ ابنها تساءلت هل تضريه أم تخبر زوجها. تحيرت في الأمر ولكنها قررت أن تنتظر الصباح .

لم تنم إلى أن استيقظ إبراهيم فصاحت فيه :

- مالك؟ ما بك؟ لست ابني الذي أعرفه .

لم يرد عليها ، صفعته على وجهه وسألته:

- أين كنت ؟

ترك سريرة ووقف متحيرا. احتضنته وقالت :

- ماذا بك ؟

انه يترنح ولا يجيب. هل يخبرها انه قرر أنه يترك الجامعة وينضم إلى عصابة الفاشلين؟ قال لها:

- اطمئني أنا بخير والبلدة بخير وكلنا بخير.

شعرت بأن زلزالا سيحطم كيانها، قالت لابنها :

- تكلم وافهمني ماذا بك؟
- لاشيء يا أمي .
- هل تحتاج إلى نقود ؟
- لا .

لا يزال يترنح، حدثت نفسها بضربه مرة أخرى ولكنها تراجعت. فتح التليفزيون وكانت نشرة الأخبار حزينة، الأنباء أشد حزنا منها، لقد أعلن عن سقوط بغداد في يد قوات الاحتلال !! بكت الأم. شعرت بمصيبة جديدة تحيق بها، كادت أن تصرخ عندما شاهدت قوات الاحتلال تتجول في جنبات بغداد، لم ينتبه إبراهيم إلا عندما شاهد تمثال صدام حسين يهوى في استهزاء . صاح :

- سقطت الأسطورة سيقتلون الرجل ويمثلون بجثته.

صرخت فيه الأم قائلة:

- سقطت بغداد ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قام إبراهيم وقال لأمه بدون اهتمام:

- سقطت بغداد منذ زمن بعيد..

غسل وجهه واستعد للخروج وكأن الأمر لا يعنيه، شعرت أن ابنها في حالة لم يمر بها من قبل. احتضنته وقالت :

- هل ستواصلون مظاهراتكم ؟!
- لا....لا فائدة من المظاهرات. فلتسقط بغداد وكافة المدن العربية وليقتل كل معارض للوجود الأجنبي أو يعدم.
- وشعاراتك.
- كنا على خطأ .
- ماذا أصابك؟
- لا شي: كل الأمور على ما يرام.
- لست ولدى الذي أعرفه.
- تغيرت؟! هه؟! كل شي يتغير.

ودت لو أنها منعته من الخروج،كانت تشاهد الأخبار وقلبها يدمع وينزف حزينا على ما جرى في بغداد وعلى اللامبالاة والسلبية التي يعيشها ابنها، ولكنها تذكرت حماها وودت لو إنه كان موجودا ليعنفه أو يمنعه من الخروج. لهجت في الدعاء أن يحفظ الله ابنها. تهاوت كل الحصون، وسقطت دموعها رغما عنها تهدج صوتها وهى تدعو، كانت تعلم أنه قد فات الأوان، ولكن ماذا بوسعها سوى الدعاء ؟!

[٥٢]

- بربع جنيه فول يا عم ناصر.

ذهب بعض الأطفال اتجاه عربة ناصر بياع الفول واختلطت طلباتهم مابين نصف جنيه وربع جنيه، أو جعته دماغه فنهرهم قائلا :

- قفوا صفا واحدا.

اصطف الأطفال وإذا به ينظر إليهم في غضب ويقول في نفسه:

- مشكلتنا إننا زدنا عن الحد، لو أن عددنا ليس بهذا الكم الكبير.

تخيل نفسه مدرسا وصاح فيهم :

- ليأتي إلى هنا من يذهب إلى المدرسة .

تحرك كل الصف نحو المكان الذي أشار فيه فتعجب وقال في نفسه:

- إنهم طلاب في المدارس!! من سوف يزرع ومن سيتعلم حرفة. مشكلتنا أننا نتزايد بأعداد هائلة تدخلنا الحكومة كالأحذية في المدارس وتصب منا قوالب متشابهة والنتيجة يتخرج أنصاف أو أرباع متعلمين وعندما ندخل الجامعة يتخرج الجميع. ويجد كل واحد مكانه على رصيف البطالة، فالجامعة إذا تفرخ طابورا من العاطلين .

وبينما كان غائصا في أحلامه مرت بالشارع سيارة فخمة، إنه يعرف صاحبه هذه السيارة. إنها ريم السباعي كانت زميلة بكلية التجارة. تعرف عليها بالرغم من النظارة السوداء التي تضعها على عينيها .

اختبأ خلف عربة الفول، نزل أسفل القدرة، ثم رفع رأسه شيئا فشيئا. إنه لم يقترف جريمة ليحاسبه أحد عليها ولكنه وكما حدث من قبل وتضطره الظروف للعمل فى مهنة النقاش في طائفة المعمار عندما كان يختبئ من زميلات إذا لمحهن وهو بملابس العمل وبقع الزيت أو الألوان تصبغ ملابسه.

ذات مرة كان ينتهي من عملة في إحدى الشقق، وكان ينتظر بفارغ الصبر أن يحصل على أجره، وبينما كان يعد نفسه لارتداء ملابسه والخروج إذا أتته ابنه صاحب الشقة، وكانت صدمة كبيرة زلزلت كيانه عندما عرف إن هذه زميلته وتجلس معه في نفس المدرج.

يا لحالة الفقر التي تلازمه وتلازم أهله منذ فترات طويلة !!

لو عمل بهذه المهنة وباع فولا لكل سكان المنطقة، فلن ينصلح حاله إلا بعد قرنين من الزمان على أكثر تقدير كان يمنى نفسه إن تتحول عربة الفول التي أمامه إلى مطعم كبير يرتاده زبائن محترمون ويتوسع عمله ويفتتح أكثر من فرع لمطعمه.

بلغ به اليأس مداه ، زعق في الأطفال وقال:

- لن أبيع الفول من اليوم.

رمقه الواقفون بغضب وقالت امرأة :

- يا بني هات بنصف جنيه فول .

أشاح بيده وقال:

- لن أبيع الفول .

اغتاظ رجل مسكين وقال :

- كل فولك إذا .

ولوحت امرأة عجوز بيدها قائله :

- اخز الشيطان يا ابني وأسرع حتى ينصرف الناس.

قال بكل تصميم :

- لن أخزى الشيطان ولن أبيع الفول.

تعجب الواقفون، تقدمت منه المرأة العجوز وقالت :

- في رمضان يصفد الشياطين ومردة الجان. ..استهد بالله ... سيؤذن المغرب بعد أقل من ساعة.

لم يتراجع ناصر عن موقفة بل وقف فيهم خطيبا وقال:

- يا بني آدميين ..هل اكتب لافته عريضة وأعلن أنى لن أبيع الفول من اليوم . منذ متى وانتم تأكلون الفول كل يوم صباح مساء ؟!

أنكم تشاركون البهائم طعامهم .

ألا تفكرون في تغيير هذا الطعام اليومي ؟!

أنا آسف لأني السبب في تنميه غبائكم بالفول الذي أطعمكم إياه. أنا مخطئ .

كان الزبائن يقفون في تعجب ولا يصدقون ما يحدث. رفع ناصر صوته قائلا:

- هل توجد أمة مثلكم تأكل الفول صباح مساء. لا أعتقد أن أجدادكم كانوا بهذا الحال المتردي الذي وصلتم إليه. تبالكم . ألا تشعرون بكرامةٍ لن أبيع الفول لكم. ماذا سيحدث ؟

لو أنكم تقومون بطهي الفول بأنفسكم ما احتجتم إلى وما كنتم ستقفون على عربتي تلتفون حولها كالذباب تبا لكم !! متى تعتمدون على أنفسكم يا شعب ضحكت من غبائه الأمم؟!استساغ بعض الواقفين كلامه، أخذوا يفكرون فيه مليا، بلغت به الحماسة فقال:

ألا تصدقون أني لن أبيع الفول من اليوم ؟ هه

بدا أنه فقد عقله تماما ولم يدر بنفسه إلا وهو يرمي قدرة الفول على الأرض، اندلق الفول، ووقف ناصر سعيدا وهو متربع اليدين، وكان ينظر باحتقار إلى بعض الأطفال الذين يأخذون حفنات من الفول المسكوب على الأرض ويضعونه في أطباقهم. أخذ يصيح قائلا :

- متخلفون وستظلون هكذا. لن تتغيروا أبدا.. على الله العوض !!

[٥٣]

قالت علياء هانم وهى تستقبل سيد عثمان :

- سبع أم ضبع

لم يرد عليها ولكنه قال :

- إنها مهمة صعبه وتحتاج إلى تحطيط ومال. ولقد خططت ولكني أحتاج المال .

أخرجت من حقيبتها ألف جنيه وقالت له :

- أمامك عشرة أيام فقط .. لا ترني وجهك إلا ومعك كل الأخبار التي تريحني .

أذن لصلاة المغرب. خرج سيد عثمان ووجد الخدم يتناولون الإفطار. نهض بعضهم يدعوه للإفطار معهم فاعتذر قائلا :

- لن أعطيكم ثوابا .. لن أفطر معكم .

لم يقل أنه غير صائم في حين أعلنت علياء غضبها وصاحت :

- افطروا خارج الفيلا أنكم ستلوثونها بقاذوراتكم

كانو يعلمون أنها غير صائمة. خرجوا جميعا في هدوء وأفواههم تلوك اللقمات .

وصل سيد إلى زملائه الذين كانوا ينتظرونه في المكان الذي تقبع فيه عربة الفول الخاصة بناصر ولكنهم تعجبوا عندما لم يجدوا قدرة الفول عليها.

أخذ سيد عثمان يحدثهم عن خطته إلى أن بدا المصلون أداء صلاة الترويح، ولكنهم تعجبوا عندما لم يجدو إبراهيم، وعقدوا العزم على عدم تنفيذ الخطة إلا عندما يصل زميلهم الجامعي .

كان يمشى على مهل، أتاهم فسألوه في لهفة .

- لماذا تأخرت ؟
- والله ما أخلفت موعدكم بملكي.
- هل تستشهد بالقران ونحن أبعد ما نكون عن الله ؟
- أجبرني جدي على صلاة العشاء معه بعد عودته من شهر العسل الذي قضاه فى عمرة مع زوجته الجديدة. إنه مشغول في بناء المجمع الإسلامي الكبير الذي يضم مسجدا ومستوصفا ودار حضانة .
- أنت ابن ناس إذا ؟
- وهل قال لكم أحد أنني ابن كلب ؟
- استمع إلى خطتنا.

لم يوافق إبراهيم على خطتهم وقال :

- أنا أكثركم تضررًا. لنبدأ برئيس تحرير جريدة النهار، ننهب ما لديه من مال .
- فقط؟
- ولمياء ؟
- افعلوا بها ما شئتم .

ارتجف سيد عثمان وقال:

- تتحدثون وكأن البلدة لا يوجد بها شرطة

لمعت عينا ناصر وقال :

- بالسلاح والمال نستطيع أن نفعل ما نشاء. سنصير قوة يحسبون لنا ألف حساب .

تحمس حسين وقال :

- استعنا بالله .

رمقه إبراهيم باحتقار وقال:

- لا تذكروا اسم الله على لسانكم القذر.

قال ناصر في استهزاء :

- كلامك أمر يا حجه الإسلام .

- وساروا جميعا وهم يغنون بصوت صاخب واتفقوا على أن يلتقوا في نفس الموعد ونفس المكان ولكنهم لم يتذكروا أن الغد يوافق العاشر من رمضان .

[٥٤]

كان صابر منهمكا في كتابة موضوع التعبير الذي كلفهم به مدرس اللغة العربية عن انتصار حرب أكتوبر والذي وافق العاشر من رمضان عام ١٩٧٣، كان إبراهيم راقدا على فرشه. كتب صابر سطرًا ثم هب واقفا ونادى أمه لتساعده في هذا الموضوع. أتته الأم قائله :

- ماذا تريد؟

- لم أحضر حرب أكتوبر وأريد أن استكمل الواجب رمقته الأم بحنان وحب وقالت :

- كان يوما عظيما .

- هل انتصرنا يا أمي ؟

- نعم وحطمنا خط بارليف في وقت كان العالم كله لا يتوقع أن نعبر قناة السويس ونحطم أنف العدو. ألم تشاهد بعض الأفلام التي تناولت هذا النصر؟

كانت الأم تتحدث بحماسة وكأنها هي التي عبرت القناة وأسقطت طائرات العدو. اخترقت كلماتها أذن إبراهيم فأيقظته، وصاح عندما تيقظ قائلا :

- حرب ؟!هل جاء الاحتلال ثانية؟!

نفض النوم عن عيونه. تغيرت حالة الأم عندما رأت ابنها.

سأل صابر أخيه .

- هل حضرت حرب العاشر من رمضان ؟
- لا لم أكن قد ولدت.
- ساعدني بالكتابة عن هذا الموضوع وعن النصر المبين.
- أي نصر؟
- نصر أكتوبر .
- هل انتصرنا ؟
- نعم .
- وهل انتصرنا الآن ؟

كان إبراهيم يتحدث بروح انهزامية يائسة فقالت الأم :

- لقد انتصرنا وسننتصر .

أشاح إبراهيم بيده معترضًا وقال :

- كلام ... نحن أمة البلاغة فقط .ودليل النصر أننا وقعنا اتفاقية سلام مع العدو.
- كادت الأم تصرخ في وجه إبراهيم وقالت :
- انتصرنا وهزمنا العدو وأوجعناه لأول مرة .

قام إبراهيم مترنحا وقال :

- إلى متى سنظل نعيش في أكاذيب؟ سأصدقك انتصرنا، والآن نحن منتصرين، والشعوب العربية في نصر دائم .. صدقوا عندما قالوا إن العرب ظاهرة صوتية وأننا لا نقرأ وإذا قرأنا لا نفهم وإذا فهمنا لا نعمل. هوت الأم بيديها على وجه إبراهيم وقالت :
- لا تحطموا آمال الأجيال القادمة. حدث أخيك عن نصر أكتوبر ولا تشوش أفكاره.

- أنا لا أشوش أفكاره. أنا أذكر الحقائق إلى متى سنكذب على أنفسنا. كان صدام حسين يفخر بأنه رابع قوة عسكرية في العالم، قال سيذبح الأمريكان على بوابات بغداد وسقطت بغداد. قال سعيد الصحاف سنستعمل طرقا جديدة غير تقليدية في محاربة قوات الاحتلال وكان يتحدث بثقة والأعداء على بعد كيلومتر من مقره الذي يتحدث منه .

والنتيجة !! أسقطت بغداد.

انخرط إبراهيم في بكاء عنيف، كانت دمعاته صادقه عندما نزفت الدموع على تدمير مدن العراق وتقتيل شعبه .. ارتفع صوت نحيبه وهو يقول :

- وسقطت بغداد من جديد ولا ندرى أي عاصمة ستسقط بعد ذلك ونقول انتصرنا؟ لم تدر الأم ماذا تفعل ولكنها تأثرت بالكلام، وقالت:
- حتى ولو سقطت بغداد فإنها ستقاوم يا دارس التاريخ.إن بغداد لم تمت عندما دخلها المغول وقتلوا الآلاف وأجروا أنهارها بدماء الشهداء. كانت الأم تتحدث بنبره صادقه متحدية، جلس إبراهيم على الأرض، وتحير صابر من جديد ولم يعرف ماذا سيكتب، شمت الأم رائحة الطعام الذي احترق فهرعت إلى المطبخ . سال صابر قائلا :
- ماذا اكتب ؟

رد عليه إبراهيم في يأس وقال :

- اكتب كنا منتصرين وكنا عظاما والآن صرنا ذيل الأمم .
- لا .. لن أكتب هذا . سأطلب مساعدة جدي .
- إذا دعني أنام .
- هل تنام طيلة النهار ... قم لنصلي العصر .
- لا .... سأنام .

استلقى إبراهيم في فراشة ولا زالت عيناه محملتان بأثر الدموع التي ذرفتها، ولكنه قال لنفسه: "إن شاء الله سنبدأ التنفيذ الليلة . تحيا القوة. لا نامت أعين الجبناء. ستندمين يا لمياء. قد تأخذ حقك ممن ظلمك يا ناصر سننفخ نارا؛ سنوقدها فقد يفيق الناس. نحن ثوار ..

ثوار ضد أناس لا يفهمون وإذا أفهمناهم لا يعملون، وإن عملوا فإنهم لا يؤثرون" .

[٥٥]

قالت أم ناصر :

- لماذا تستعد للخروج؟ ألن تتناول الإفطار معي؟
- لا .. لقد دعاني بعض أصدقائي لنتناول الإفطار معهم.
- وتتركني أفطر بمفردي مع أخيك وحدنا ؟
- معذرة يا أمي فلدينا عمل .

سألته عن سبب يبرر إلقاءه قدرة الفول بالأمس فقال :

- وجدت عملاً أفضل .

نظرت إليه في شفقه وقالت :

- ربنا يفتح لك كل أبواب الخير

ثم سألته :

- وهل ستكسب من عملك الجديد ؟
- نعم يا أمي ... أموالا طائلة .

نظرت له الأم بحذر وسألته :

- مكسب حلال يا ابني ؟

وقف متحاشيا النظر إليها وقال في هدوء:

- الحلال. لن يطعمنا مجرد العيش الحاف.
- ولكن الله سيبارك فيه. هل ردت عليك مها ؟
- سترد قريبا .
- مبروك يا بنى .. لن تجد عريسًا مثلك .
- قال متظاهرا بأن الأمر لا يعنيه :
- لقد وجدت عريسًا جديدًا .. وجدت رجلا لقطه

- ألست حزينا ؟
- لا ... البنات غيرها كثيرات
- ربنا يكملك بعقلك يا ابني

احتضنت ابنها في حنان وقالت :

- قلبي مقبوض وأشعر أنى غير مستريحة ولا أعلم سببا للأحلام السيئة التي أحلم بها .
- لا تقلقي وتغطى جيدا.

كانت تحلم بأن أبنها يسير في طريق صحراوي والثعابين تلاحقه وكانت تنادى عليه بأعلى صوتها ولا يجيب، كانت تجرى وراءه ولكنه لا يسمعها وكانت الحيات تنهشه ولكنه كان يبتسم .

فقصت على ابنها الحلم الذي يراودها ولكنه قال:

- معنى ابتسامي في الحلم أنى بخير.
- إلهى يابني تكون بخير دائما ويحفظك.
- لا تقلقي يا أمي.
- ليس لي في الدنيا سواك.
- وأنا أحبك وكل ما أفعله سيصير من أجلك ولازلت أذكر العهد الذي قطعته على نفسي معك ... سآتيك بنقود كثيرة حتى تذهبين إلى الحج يا أمي.
- وهل ستحج معي؟
- دعي الأمور كلها لله .

احتضنته أمه لمدة دقائق، وعندما خرج من الشقة شعرت بأن روحها كادت تخرج معه، واصلت دعواتها لابنها، وكان ناصر يستمع لدعائها، وأخذ يبكى بحرقة...لم يستطع الوقوف...جلس على السلم ...بللت الدموع عينيه، رفع رأسه إلى السماء وقال :

- سامحني يا رب .

تحامل على نفسه ...وقف وهو ينقل خطواته المتثاقلة. نزل درجات السلم ولازالت دعوات أمه تلاحقه.

[٥٦]

- لماذا تتأخر كل مرة يا إبراهيم ؟

- أصر جدي على إن أتناول الإفطار معهم، وعندما خرجت كانت دعواتهم لي بالتوفيق تحاصرني. ربنا يستجيب.

كان الأصدقاء مجتمعين،حكى ناصر عن أمة ودعائها كما حكى إبراهيم عن دعوات أمه وجده .أما سيد عثمان فقال والشر يتطاير من عينية :

- أما أنا ... ماتت أمي ومات أبى بعدها، ولكنة تزوج قبل موته وترك كل شي لزوجته. فلا أحد يدعو لي إني أكره الجميع. لم أجد يدا حانية تمسح دموعي، ولم أجد أحدا يدعو لي .

كف سيد عثمان عن الكلام وقال بغضب فجأة :

- هل ستقضى الليلة كلها في الكلام .هيا إلى العمل

قال ناصر والحقد يقتله:

- نبدأ بمها .

قال إبراهيم :

- نبدأ بلمياء وأبيها. نذبح رئيس التحرير حتى تكتب الصحافة عن المأسوف على شبابه.

قال حسين العجلاتي :

- ولماذا لا ننهي مهمتنا كلها في ليلة واحدة؟

كانت عيناه تنطق بالشر وبالفكر الذي اتفق عليه الجميع إلا أن سيد عثمان قال :

كل يتحدث عن مصلحته....أرى أن نبدأ بفريد أولا

رد ناصر مستهزأ:

- كل يتحدث عن مصلحته !!آهة ؟ وأنت أول من تفكر في القضاء على فريد.

لم يجد سيد عثمان بدا من الحديث بصوت مرتفع، وصاح فيهم:

- أنا رئيسكم ولى عليكم السمع والطاعة .

سكت الجميع وأذعنوا لرأيه. كان قد زود كل أصحابة بمسدس ممتلئ بطلقات وسكين قاطع. انطلقوا إلى المصنع.

تسلل ناجح.

اخترقوا سور المصنع. همس إبراهيم في أذن سيد عثمان قائلا:

يا زعيم ...هل ستنتهي من فريد الليلة فعلا؟

- نعم ...لا تتحدث كثيرا ... دعنا ننفذ الخطة كما وضعتها .

كان إبراهيم يشعر بروح المغامرة التي دفعته في طريق رفاقه وكانت أحزان الغضب واليأس تحرق كل آماله. كانت أصوات الآلات تنطق بالحزن. أمرهم سيد عثمان بتغطية وجوههم والاستعداد للعمل .

نادى أحد الحراس بصوت مرتفع: من هناك؟ توارت العصابة خلف شجرة، ولما لم يجد الحارس بدا تراجع ولم يلتفت وراءه فانقض عليه حسين وأوسعه ضربا فتكوم.

فسأله إبراهيم :

- هل مات؟

- الله اعلم ...هو وقدرة.

- إنه ضحية ومن الفقراء مثلنا .

قال ناصر :

عند كل حرب يسقط آلاف الضحايا... لا تشغل نفسك

أبدا . دعنا نكمل .هيا .

كانت الخطة تقتضي أن يقتحم إبراهيم مكتب فريد ولكن سيد عثمان أمرهم أن يتركوا هذه المهمة له. كانت مها مشغولة بكتابة أحد الخطابات عندما تسلل حسين وفتح الباب فجأة.

فصرخت مها قائلة :

- ماذا تفعل هنا؟

ولم تفق من دهشتها فلقد كان سيد عثمان وناصر قد اقتحما مكتب فريد. ووفقا للخطة. كمم حسين فم مها، وربطها بالكرسي الذي تجلس عليه. كان حسين ينظر إليها وهى لا تتكلم ولا تتحرك. رمقها باحتقار ولحق بزملائه بعد أن أحكم غلق باب السكرتارية.

رفع فريد عينيه من على الورق وفوجئ بالعصابة تقف أمامه، صاح فيهم ناصر:

- إياك إن تتحرك . ارفع يديك إلى أعلى.

رفع يديه مستسلما .... فتح سيد عثمان الخزينة وأخذ كل ما بها من مال .توسلت نظرات فريد إليهم ألا يقتلوه، ولكن راحت توسلاته هباء وكانت أول طلقة فى رأس فريد بيه الذي لم يهنأ سوى بزوجة واحدة وقد كان يخطط لثلاث زيجات جديدة .

وبدأت مهمتهم فى الخروج، ووفقا لخطتهم كانوا سيقضون ليلة حمراء مع مها التي اقتادوها إلى مكان منعزل واغتصبوها واحدا تلو الأخر، وكان نصيبها طلقة أخرست كبرياءها، فتكومت على التراب والتصق وجهها بالأرض ثم تركوها وانصرفوا وهم يعربدون.....

[٥٧]

أقيم سرادق فخم من أجل العزاء في فريد بيه. وزرفت عينا علياء هانم دموعا كاذبة كدموع التماسيح على زوجها الفقيد. وعندما سألها ضابط الشرطة عن وجود أعداء لفريد قالت كاذبة :

- كان كل الناس يحبونه إنه رجل خير. كان كنسمة هواء باردة في صيف قاس . رحمك الله يا زوجي.

كانت تمثل دور الحزن بكل براعة، وما أن انصرف جميع من كانوا يلبسون السواد إلا وتخيلت الفيلا ممتلئة بالمهنئين الذين كانوا سيقدمون التهاني لزوج النساء الأربعة، تخيلت فريد بية ممسكا عروسه عن يمينه وأخرى عن شماله وثالثة تسير أمامة وتساءلت "من يظن نفسه؟ قد مات ارتاح وأراح".

جاءها سيد عثمان وهو يبكي ، نظرت إليه وقالت بصوت منخفض :

- تقتل القتيل وتمشي في جنازته.

تظاهر بالحزن وقال وهو يقلدها عندما كانت تحدث ضابط الشرطة:

- كان كل الناس يحبونه. إنه رجل خير. كان كنسمة هواء باردة في صيف قاسٍ . رحمك الله يا زوجي...

- قاتله الله ... فليذهب إلى الجحيم .

نظر إليها بإعجاب وقال :

- تصدقي بالله إنه رجل حمار .

تعجبت علياء وقالت :

- لماذا تشتمه ؟ تذكروا محاسن موتاكم.

رمقها في إعجاب ولمس يدها برقة ثم قبل يدها وقال :

- كان مغفلا .. أيترك هذا القمر ويذهب إلى النجوم ؟

لو كنت مكانه ما متُ . هل أموت وأترك هذا الجمال أعجبها ثناؤه على جمالها، أخذ بيدها ودخل حجرتها، وأمطرها بوابل من قبلاته ، استسلمت لقبلاته بعد أن أبقاها على سريرها فقالت :

- إنك شقي .

- شقي بحبك .

- الرجل دمه لم ينشف.

- تصوري ... الحسنة الوحيدة التي فعلها في حياته أنه مات ... وترك لي أجمل نساء الأرض

احتضنها بعنف، نظر إلى صورة فريد المعلقة على الحائط ، فقام وانتزعها وحطمها قائلاً:

- لا تنظر إلينا يا أخي .. هل ستزعجنا حيًا وميتًا؟

واتجه إلى علياء وقال في هدوء :

- حتى صورته حطمناها .. هيا أدخليني جنتك .

ارتفعت ضحكاتها عندما كان سيد يعابثها ، ولم تكن تدرى أن راشد خارج الحجرة يستمع لضحكاته ،كان يبكى أباه الذي فارقه وأخته التي تركته وحيدا مع أمه .

[٥٨]

أما والد مها فكانت دموعه صادقة على ابنته التي قتلت بعد أن اغتصبها الآثمون كما بين الطبيب الشرعي . واساه المعزون ولم تكن قدماه تقدران على حمله، كان لا يكف عن البكاء . تقدمت والدة حسين العجلاتى وقالت :

- وحد الله يا حاج . هذا أمر الله .

تقدم حسين وقال متظاهراً بالحزن :

- البقاء لله .. ارحم نفسك .

كاد الرجل أن يفقد إيمانه وقال :

- أرحم نفسي . لقد اغتصبوها ثم قتلوها .. وفى شهر رمضان يا لكارثتي !!

ثق يا عم أنها قاومتهم. إنها ابنته حارتنا. رحمها الله لقد كانت زينة البنات.

تحسس جرحًا في يده كانت مها قد سببته له عندما كان يجردها من ملابسها . ثم تقدم ناصر قائلاً :

- هون على نفسك يا عم .

كانت هذه الكلمات تزيد من جنون الرجل الذي صاح :

- اخرجوا جميعًا .. لن أقبل العزاء في ابنتي إلا بعد أن تعرف الشرطة من فعل هذا .

خرجوا جميعًا وتركوا الرجل يغوص في حزنه. إنه يكاد أن يغرق في ألم دموعه.

سقط مغشيًا عليه وكان يردد كلما أفاق:

- إنها لم تفرح بخطيبها ...

أجهز ناصر عليه بقوله :

- لقد قتل الكلاب أيضا فريد بيه.

نظر الرجل إلى الحاضرين وقال :

- وأين الأمن وأين الشرطة ... يا عالم ياهووه..

اخرجوا من بيتي لن أقبل العزاء في ابنتي إلا إذا تم القبض على الآثمين المعتدين..

نظر الرجل إلى صورة زوجته وقال :

- سامحيني لم استطع الحفاظ على ابنتنا من بعدك.

حاولت والدة حسين أن تهدئ من روع الرجل فقالت :

- وماذا كنت ستفعل ؟هل كنت ستحرسها وتذهب معها في كل مكان؟ هذا قدرها. استهدئ بالله يا عم الحاج .

خرج ناصر وحسين من المنزل وقال ناصر :

- إني مستاء لحالة الرجل.

رد عليه حسين قائلا :

- ما يؤثر في نفسي أنه لن يقبل العزاء إلا إذا تم القبض على المعتدين وهذا لن يحدث أبدا

- لماذا؟

- الشرطة مشغولة بمطاردة الإرهابيين وذوى الآراء المعارضة، وضرب المظاهرات في الجامعات كما يخبرنا إبراهيم

- إذا له الله

وما هي إلا لحظات إلا وصرخت والدة حسين معلنة عن موت والد مها . قال ناصر وهو يبتسم :

البقاء لله في حماك.

قال حسين ضاحكًا :

- رحم الله حماك أنت.

[٥٩]

لم يكن الحزن يعلن عن نفسه في بيت والد مها فحسب، بل كان ينتشر في كل مكان من شقة الأستاذ عادل أيضاً فلقد كانت زوجته قد فارقت الحياة منذ ساعات نتيجة حملها. كان عادل يتمالك نفسه حتى لا يبكي مثل أطفاله الذين انخرطوا في بكاء مرير.

كان يشعر أنه السبب في موتها ، نظر إلى طفليه في حسرة . واساه الأستاذ راضى قائلاً :

- شد حيلك يا رجل. البقاء لله .

كانت عيناه تسألان عما يمكن أن يفعله مع الأطفال، رد عليه الأستاذ ذكى قائلاً:

- ولا يهمك .. سأبعث سالي ابنة أختي تقوم بطلباتهم وتساعدهم .

قال الأستاذ راضى في نفسه: "يبدو أنك تخطط هذه المرة لتزوجها لعادل المسكين، أتق الله يا رجل" ترك عادل زملاءه ودخل

حجرة زوجته وأخذ يبكى دموعاً حارة على زوجته التي تغيرت في آخر أيامها تاركه له ذكرى المرأة الحانية المحبة لزوجها. ظن أنه قتلها عندما خانها وفكر في حب جديد كاد يلامس قلبه ولكن ذهب الحب وذهبت الزوجة أيضًا ..

غادر الأستاذ راضى شقة صديقه بعد العزاء وكان يفكر في هذه الحياة التي لا تساوى جناح بعوضه، وعندما دخل شقته لم يجد زوجته في الصالة،خمن أنها في حجرة النوم ولكنه لم يجدها .

وفجأة خرجت زوجته من المطبخ ووضعت يداها على عينيه ثم قبلته والسعادة تنطلق من عينيها. سبحان الله إنه حزين لموت زوجة صاحبه. ولكن زوجته قالت له :

- أنا سعيدة جداً .
- وأنا حزين جداً. لو رأيت الأستاذ عادل وحزنه على زوجته لقلت أن الدنيا قد انتهت .

قالت الزوجة:

- الدنيا لا تنتهي لمجرد أننا نحزن أو نصاب بكارثة . ستستمر الدنيا وتسير عجلة الحياة مهما حدث .

دخل راضى حجرته وهو لا يزال متأثراً بموت زوج صديقه وقال في صوت مرتفع لتسمع زوجته التي ظلت بالصالة :

- هل تصدقي أن ذكى يحوم حول عادل ويخطط ليزوجه ابنة أخته. أنها امرأة شؤم. لقد قتل خطيبها فريد بيه ويستر الله على عادل إن تزوجها ويلطف بأولاده .

دخلت زوجة راضى وقالت له :

- إلى متى سنظل نتحدث عن الناس؟ متى سنتحدث عن أنفسنا وعلى كل لدى خبر سار لك .
- لي أنا ؟!
- وما الذي يسر في هذه الحياة ؟

سكتت قليلاً ، كانت تضع يدها خلف ظهرها ، قالت له :

- خمن لماذا أنا سعيدة ؟

- لا تحيريني.

أخرجت خطاباً كانت تخفيه وراء ظهرها وقالت :

- أنا سعيدة بشأن هذا الخطاب .

قال لها وهو يخمن :

- هل كسبت شهادة الاستثمار التي اشتريتها لك ؟ هل سنصير أغنياء ؟!

قالت له :

- تخمين خطأ .

قال وهو يضحك :

- غلب حماري .

احتضنته قائلة :

- مبروك يا حبيب عمري لقد تحقق حلمك.هذا خطاب من الجامعة، ستدرس في الجامعة وتترك وزارة التربية والتعليم.

لم يكد يصدق ما تقوله، خر ساجداً لله ليشكره على فضله، ولما فرغ من سجدته قال لها :

- أسعد خبر سمعته في حياتي. سأحقق حلمي وسأدرس في الجامعة. الحمد لله والشكر لك يا رب.

احتضن زوجته والسعادة تغمره ، ولكنها قالت :

- وهناك خبر سيء .

- اصبري على حتى أفرح قليلاً بهذا الخبر .

- أنا مصممه على أن أخبرك بالخبر السيء. هكذا الحياة يوم حلو ويوم مر .

قال لها وهو يضحك :

- معك حق .. الدنيا يومان : يوم عليك ويوم عليك

ضحكت زوجته وقالت :

- يعنى اليومان عليك .

- لا ... لا كنت أهذر .
- اسمع يا سيدي الخبر السيء
- دعيني أستعد .
- لا .. لا تستعد . إنه خبر سيء
- ما هو ؟
- ستزيد مصاريف البيت بمعدل الثلث .
- لماذا ؟ المرتب يكفينا بالكاد .
- سيزيد المرتب يا أستاذ الجامعة .
- ولماذا تزيد مصاريف البيت كل هذه الزيادة ؟

لم ترد عليه ولكن نطقت عيناها بكل معاني السعادة، احتضنت زوجها وقالت:

ستصير أباً يا حبيب قلبي. لقد أكد الطبيب لي أنى حامل. الحمد لله.

لم يصدق الأستاذ راضى ونظر إلى زوجته في عتاب وقال :

- وهل هذا خبر سيء ؟ الحمد لله .

كانا يشعران بسعادة بالغة، خرسا بعض الوقت ولكن نطقت معاني السعادة في عيونها. أذن لصلاة العشاء فقاما يستعدا للصلاة . إلا أن الأستاذ راضى قال في هدوء :

- أخشى أن تزيد مصاريف البيت بمعدل يزيد عن الثلث.
- لماذا ؟
- قد تنجبين اثنين .
- هيا نستعد للصلاة وسيرزقنا الله .
- هيا يا حبيبة القلب ... الحمد لله ..

[٦٠]

تسربت الخلافات إلى حياة الست جمالات وزوجها الجديد ، وكانت تحاول أن تتغلب على هذه الخلافات، إلا أنه كان يفضل أن ينزل إلى شقة ابنه ويتحدث مع صابر وإبراهيم. وكانت نور قد أصابها

اليأس من أن يلتفت إليها إبراهيم. إنه يراها طفلة مع أنها تهيم به حباً، ولعلها اعتقدت ذات يوم أنه يحب زميلته في الجامعة .

كان والد إبراهيم حزيناً على مقتل فريد بيه ولكنه كان سعيداً لأنه لم يعمل جاسوساً، واستمرت حالة الإضراب في المصنع وأثمرت عملية الإضراب فلم يدخل المصنع في سياسة الخصخصة .

وبعد الإفطار كانت الأسرة تشاهد برنامجاً في التليفزيون وكان ضيف البرنامج المطرب عامر وحيد، كان يتحدث عن مشواره الفني وكيف أنه ثابر وتعب إلى أن وصل إلى هذا النجاح وأنه على استعداد أن يقدم العون لأي شاب يجد في نفسه موهبة. صرخ إبراهيم قائلاً :

- كذاب

قالت له الأم :

- أهدأ .

رد عليها بغضب وقال :

- كان زميلي في المدرسة والآن صار نجماً إنه لا يساعد أحداً . لقد أنكر أنه يعرفني . وعلى كلٍ موعد نهايته قد اقترب .

ربت الجد على كتفه وقال :

- الغريب أننا في شهر رمضان ويقدمون لنا المغنيين والراقصات كل يوم وكأن رمضان ليس شهر عبادة !!

رد عليه إبراهيم قائلاً :

- لا تقل هذا يا جدي حتى لا تتهم بالتطرف. هؤلاء هم نجوم الفن والقدوة والمثل الأعلى لنا .

وفجأة رن جرس تليفون إبراهيم المحمول، فأخذه ودخل حجرته. أتاه صوت سيد عثمان قائلاً .

- هل تشاهد عامر وحيد ؟

- نعم .

- نهايته غدًا .

- أعلم هذا حسب الخطة .

- نلتقي بعد الإفطار غدًا.

دار إبراهيم في حجرته فرحًا. لفتت كتبه المتراصة على المائدة انتباهه قليلاً فلقد هجرها منذ أكثر من أسبوع ويبدو أن هجره لها سيزداد كثيرًا .

ناداه صابر في الصالة ليساعده في حل مسألة فخرج إليه واعتذر له بأنه لا يريد أن يوجع رأسه . قال صابر :

- سأفهمها بسرعة . أنا الأول على الفصل .
- أنت مسكين .
- وهل هناك أفضل من الأول .

رد قائلاً :

- هل يوجد نجم في المجتمع يشار إليه بالبنان وكان يومًا ما في حياته الأول في فصله ؟ إن عامر وحيد كان في ذيل القائمة ولم يكن متفوقًا مثلي في الدارسة والآن صار نجماً يشار إليه بالبنان.
- لا أفهم ما تقول .
- ولا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك. أدخل حجرتك.

ولما دخل صابر حجرته قال إبراهيم لجده :

- حرام أن نضيع مستقبل الأطفال وأن نعلمهم.

قالت الأم في تعجب :

- وهل التعليم يضيع مستقبلهم ؟

رد بكل ثقة :

- نعم .. إذا تخرج الشاب في الجامعة يحصل على الملاليم أما إذا غنى أو رقص أو صار لاعب كرة فإنه يصبح نجماً ويحصل على الملايين .

قام الجد واقفاً وقال :

- لا تعجبني أفكارك في الفترة الأخير يا إبراهيم .
- يا جدي هذه هي الحقائق .

- لقد تغيرت كثيرًا . أين شعاراتك ؟!
- فهمت الحياة يا جدي .
- لا أعتقد هذا .

دخل الجد الصالة ليشرح مسألة الحساب لصابر، في حين تساءلت الأم ولأول مرة :

- كيف حصلت على هذا التليفون المحمول ؟

كاد إبراهيم أن يتعلثم ولكنه قال :

- حصلت عليه كجائزة في إحدى مسابقات الإعلانات اتصلت بالرقم ثم أبلغوني أنى فزت بالمحمول .
- ولماذا لم تخبرنا؟
- لم تأت مناسبة .. لا تشغلي بالك يا أمي .

أراد أن يشغلها عن التفكير فقال :

- أريد أن أشرب الشاي من يدك الحلوة .
- قامت الأم واتجهت نحو المطبخ .

ولكنها كانت تتساءل عما أصاب ابنها، اتجهت إليه وقالت :

- وما أخبار المذاكرة ؟
- كل الأمور على ما يرام . نسألك الدعاء .

[٦١]

اجتمعت العصابة بعد الإفطار. وتحدث فيهم سيد عثمان قائلاً :

- كل واحد يعرف دوره.

رد الجميع بالموافقة، ولم يكونوا ملثمين في هذه المرة، فلقد تظاهروا أنهم طاقم الإذاعة الذي سيجرى مع عامر وحيد مقابلة تذاع في الراديو. اتصل سيد عثمان بعامر فأبلغه المطرب بالموافقة على إجراء المقابلة في فيلته. دخل ناصر وحسين الفيلا أما إبراهيم فقد وصل متأخراً على أساس أنه سيكون المذيع. أخبر سيد عثمان البواب أن الهدوء مطلوب حتى يتم تسجيل الحوار مع المطرب الشاب الفنان

المبدع على أكمل وجه، وطلب منه إخراج الخدم حتى لا تحدث مشكلات تعوق أداء عملهم على أكمل وجه، وكان له ما أراد .

كان عامر وحيد كريماً معهم لدرج البذخ فلقد أعد مائدة عامرة بما لذ وطاب. والتهموا طعامهم ودخل إبراهيم فوقف المطرب الشاب متحيراً وقال :

- لا يمكن !! إبراهيم متعب .
- نعم .
- أنت مذيع ؟
- نعم .
- جئتني منذ فترة تطلب مساعدتي لدخول الوسط الفني .
- نعم .
- ولكنك مذيع .. كيف ؟ إنك لم تتخرج .
- أعمل مذيعاً من الباطن .
- لا أصدق .
- هيا نبدأ العمل . قلت في حديث تليفوني أنك تحب مساعدة الشباب لدخول عالم الفن .
- نعم .
- وهل هذا صحيح ؟

لم يستطع أن يرد . أراد أن يهرب . فلقد أحس أن هناك شيئاً غير طبيعي يحدث . صرخ بأعلى صوته طالباً النجدة قال له إبراهيم :

- لو صرخت إلى الغد فلن تجد أحدًا .
- أرجوك ارحمني .
- لقد أنكرت أنك تعرفني .
- سامحني .
- سأقتلك كالكلب .
- أقبل يديك ورجليك اتركني .

- لا .
- خذ كل ثروتي واتركني .
- لا .. والآن أسألك سؤالاً واحداً : هل تعتقد أنك أفضل منى ؟

لم يرد المطرب فواصل إبراهيم كلامه متسائلاً .

- هل كنت أفضل منى في الدراسة ؟
- لا .
- جعلوك نجماً
- الرحمة .
- جعلوك قدوة .
- أريد أن أعيش .. لا تقتلني أرجوك.

ولم يستمع أحد من العصابة لتوسلاته، وعلى الرغم من أنه كان كريماً معا فأطعمهم وسقاهم إلا أنهم لم يكونوا كرماء معه على الرغم من قول إبراهيم .

- لقد أكرمناه بعشر طلقات .

وخرجوا جميعاً في هدوء .

قال سيد عثمان للبواب .

- عامر بيه يأمركم بأن تتركوه إلى الصباح حتى يستريح بعد هذا اللقاء الإذاعي المتعب سيفرح به جماهيره

وخرجت العصابة بنفس الهدوء الذي دخلت به الفيلا إلا أنها خلفت وراءها قتيلاً جديدًا ..

[٦٢]

لم تترك مس نادية مدرستها التي كانت تعمل بها، كانت كلمات أمها ترن في أذنيها، شعرت بأن العمر قد مر وبات القلق يستبد بها، كانت نظرات الشفقة من زملائها كفيلة بقتلها، نظرات الرثاء من المدرسين والمدرسات تخترقها وتحدث فيها أثر القنابل المتتالية على مكان واحد، فتكون هوة عميقة داخلها.

كانت تشعر بهذه النظرات وتفهم مغزاها ومع ذلك كانت تأمل أن تجد زوجاً مناسبًا، تحسرت على أيام نصيف كانت تصده وتتهمه بالبخل إلا أنها اكتشفت كم كان كريماً معها، بل تمنت أكثر من مرة، عودته ، تذكرت كلمات أمها والتي كانت تتغنى بها دائماً كمثل شعبي: "من لا تحتاج وجهه اليوم قد تحتاج قفاه غدًا".

كان بعض الشباب العابثين يطمعون فيها، ويصبون في أذنها عبارات الحب الكاذب من أجل الحصول على لذة جنسية مؤقتة إلا أنها ترفض باستمرار وتصر على الزواج أولاً فسرعان ما كانوا يبتعدون عنها، أما إذا اقترب منها زميل وصار قاب قوسين أو أدنى من الاعتراف بإعجابه فكانت تتأكد أنه متزوج ويسعى للحصول علي خليلة هرباً من جحيم زوجته وحياته معها، فكانت تغلق طريقه وتبلغه أن النار التي لدى زوجته أفضل من الجنة التي لديها لأنها ستتحول إلى سعير دائم بعد زواجه منها.

ودت لو عاد إليها فريد بلمساته التي كان يختلسها منها رغماً عنها ، كان ترغب وتريد إلا أنها كانت تستمتع بها ثم تظهر تمنعها. كانت تتفنن في إظهار مفاتنها على الرغم من أن قطار العنوس قد ركبته منذ سنوات، وكانت تتساءل "ترى من سيرضى بي ؟".

ذات مرة تجرأ أحد الفراشين وأخبرها أن لديه عريسًا يرغب في رؤيتها، فما أن رآها العريس إلا وفر فرار الغزالة الشاردة من بين فكي أسد فتاك .

جلست في الفسحة تراجع حياتها وتأسف على نصيف الذي أضاعته من يديها بالمبالغة في إظهار كراهيتها له تارة ، وبالمبالغة في إظهاره أمام أمها بمظهر العريس البخيل الذي يبكى إذا أخرج قرشاً من جيبه تارة أخرى. وأنى لك يا نادية في الحصول على عريس مثله! فلما علم بخبر خطبتها لفريد بيه، سارع وخطب ابنة خالته ليغيظها .

وبينما هي في حالة الضعف الشديد التي تجعلها تشعر بالتضاؤل أمام نفسها، دخل الفراش وقال.

- آسف يا مس نادية

كان يرتجف ويتردد في كلامه خوفًا من أن تهب عليه رياحها الغاضبة فقالت :

- تكلم يا رجل .. ما بك ؟
- أصل .

تأتأ الرجل وتأتأ فقالت له :

- انطق .

تشجع ثم قال لها :

- أم العيال ماتت .

واسته وأخرجت من جيبها خمسة جنيهات وأعطته إياها، رمقها بتعب وقال:

- لا أريد مالاً .
- ماذا تريد إذاً ؟
- أخشى أن تغضبي .
- لن أغضب .
- الموضوع حساس
- يا أخي تكلم .
- عديني ألا تغضبي.
- لن أغضب قلت مائة مرة .
- أريد أن أطلب يدك للزواج .

قالها دفعة واحدة ثم تراجع ناحية الباب خوفاً من أعاصير غضبها ورياح سخطها. تماسكت نادية، ابتسمت في سخرية وقالت :

- أتعلم أنك فراش ؟
- نعم .
- وتعلم أنى مدرسة ؟
- نعم .
- وتريد أن تتزوجني ؟

- نعم يا ست نادية، لا تنظري لمرتبي، فأنا لدى موارد عديدة أخرى للدخل تجعل ما أحصل عليه شهرياً أكبر من دخل ناظرة المدرسة وزوجها.

حاولت مس نادية أن تتحكم في أعصابها أكثر وقالت :

ولماذا لا تفكر في الزواج من ناظرة المدرسة إذاً ؟

رد عليها وهو يحاول أن يظهر حبه ، فغمز لها بعينيه وقال :

- القلب وما يريد يا ست نادية .

كادت أن تنهار ولكنها قالت له .

- اخرج من هنا ولا ترني وجهك ثانية .
- يا نادية ..
- اخرس .. اسمي مس نادية .. هل نسيت نفسك ؟
- يا جماعة نحن بنى آدميين من أم واحدة وأب واحد أم لأنني فراش ؟!

أخذت ترميه بكل الأوراق والكراسات التي أمامها فخرج مذعوراً يقول: "استر يارب" ولم تكتف بهذا بل قامت وصفقت الباب بقوة في وجهه .

رجعت إلى مكتبها وكادت تبكى. "حتى أنت أيها الفراش تطمع في الزواج منى ؟ ماذا حدث للدنيا ؟"

وإذا بالفراش يسب ويلعن، فقابله رجل وسأله عن حجرة مس نادية فقال له :

- في آخر هذه الطرقة. هل أطلب لك الإسعاف.
- لماذا ؟
- لأنها ستقتل أي أحد يدخل إليها .

انطلق الرجل غير عابئ بهذا التهديد وطرق الباب، صاحت نادية. ارجع يا زفت وإلا فضحتك وجعلتك فرجة للناس. لم يتراجع الرجل وطرق الباب مرة ثانية وثالثة.

كان بركان الغضب داخلها يتأجج ، فعقدت العزم على إلقاء باقي الأوراق في وجه من كانت تعتقد أنه الفراش الذي يعود إليها في سخافة.

وانتظرت أن يفتح الفراش الباب فألقت بعض الأوراق في وجهه ولكنه لم يكن الفراش. لقد كان خطيبها السابق نصيف!! أخذ ورقات قد أصابته وقال في هدوء :

- صباح الخير يا مس نادية .

ترددت فلم تعرف ما تقول ولكنها ابتسمت عندما لم تجد دبلة في يده ثم قالت :

- آسفة .. تفضل .

- هل يمكن أن أدخل ؟

كانت ملابسه جديدة ونظيفة فلقد عرف التأنق طريقه إليه ، قالت بلهفة بعد أن نظرت إليه في ود ورغبة في أن تمسح الماضي :

- نعم ... تفضل ... القهوة يا زفت ..

[٦٣]

كانت صفحات الجرائد تمتلئ بالأخبار والمقالات والتحقيقات عن جريمة مقتل المطرب المشهور عامر وحيد فقيد الفن الراحل الذي اغتالته أياد مجهولة، وتباينت وجهات النظر بين غاضب يرى أنها مؤامرة على الفن وأنها جريمة بكل المقاييس، وبين من يرى أنه يجب القبض على المجرمين إنقاذًا للمجتمع وحماية للمواطنين من هذه العصابة التي تنفذ جرائمها بمنتهى الوحشية .

إلا أن الصحفية الشابة علا عامر كانت لها وجهة نظر مغايرة تماماً . فلقد كانت ترى أن المجرمين مرضى وأن المجتمع هو السبب في انحرافهم . كانت قد حصلت على الدكتوراه من لندن وعادت لتمارس العمل الصحفي الذي تهواه .

وفى إحدى مقالاتها ذكرت أن المجتمع ينظر إلى القاتل باعتباره الجاني الحقيقي ولكنها دعت إلى نقله جديدة في التفكير ، لماذا لا نعتبر أن القتيل هو الجاني الحقيقي، ما الانحرافات التي أدت إلى قتل هذين الشخصين بالتحديد فريد وعامر ؟

وكان لهذا المقال رد فعل حقيقي في المجتمع وفى الجريدة التي تعمل بها، لدرجة أن رئيس التحرير وبخها وقال متسائلاً في استنكار :

- ما هذا الذي تكتبينه ؟
- أكتب رأيي .
- لقد قلبت علينا الدنيا .
- هذا رأيي ولن أغيره .
- ابحثي إذا عن جريدة غير جريدتي .
- وحق التعبير عن الرأي ؟

لم يرد عليها ولكنه قال :

- قلت ابحثي عن جريدة أخرى .

لم يكد يكمل كلماته إلا وكانت قد أظهرت له من حقيبتها ورقة مطوية، رمتها على مكتبه فسألها :

- وما هذه ؟
- استقالتي أقدمها لك .
- مع السلامة .
- ستندم وتطلب منى العودة ولن أرجع ثانية .
- مع السلامة باب الجريدة يمر منه جمل .

خرجت علا من الجريدة عازمة ألا تعود إليها مره أخرى ولكنها لم تكن تعلم أنها ستعود رغماً عن رئيس التحرير .

[٦٤]

وفى اليوم التالي فاحت رائحة الفضائح الخاصة بالقتيلين فلقد تناولت الصحف فضائح فريد بيه وسياساته المالية الفاشلة ونشرت صوراً عن فضائحه الأخلاقية وتورطه في علاقات مشبوهة مع بعض العاملين في المصنع كما نشرت تقارير عن حساباته السرية في بنوك سويسرا وعن صفقات مشبوهة كانت تجرى باسم المصنع ثم توضع في جيبه الخاص، أما عامر وحيد فلقد نشرت انحرافاته الجنسية وتورطه

أكثر من مرة في شبكات دعارة عالمية، ونشرت تحقيقات تناولت اغتصابه لعشرات الفتيات بزعم منه أنه سوف يدخلهن عالم الفن والشهرة، كما نشرت تقارير عديدة عن حسابه الخاص في البنوك والذي تجاوز عشرات الملايين، وأثيرت التساؤلات عن مصدر هذه الثروة وهو في هذا السن ؟

وبدأت بعض الصحف تراجع سياساتها، عندما صار الاتجاه السائد يشير إلى القتلة على اعتبار أنهم نجوم وأبطال لأنهم حاولوا أن يستأصلوا الفساد، ومع هذا فليس من حقهم أن يطبقوا القانون بأنفسهم وإنما هذا هو دور رجال القضاء ، إلا أن خطأهم الوحيد تمثل في اغتصاب فتاة بريئة .

سار العمل في صحف المعارضة على قدم وساق وحاولت هذه الصحف المعارضة أن تستقطب علا عامر إلي الكتابة لديها ولكنها كانت ترفض استمرار. وذات يوم قال لها أبوها :

- هل يرضيك جلوسك في البيت وصحف المعارضة تتمنى أن تعملي معها ؟

- إنه مبدأ يا أبى .

وفجأة يرن جرس التليفون فيرد أبوها فيجد رئيس التحرير على الهاتف، يعطيها الأب السماعة فتقول :

- كنت أتوقع مكالمتك.
- آسف .. لقد كنت على صواب .
- ماذا تريد ؟
- أعتذر واطلب منك العودة .
- سأفكر في هذا الموضوع .
- لماذا لم تكتبي في صحف المعارضة ؟
- إنها تتعمد الإثارة كما أنى لا أتاجر برأيي .
- أنت نموذج مشرف للصحفية الجادة .
- ولكنك طردتني .

- أعتذر لك ثانيه . متى تعودين ؟
- عندما تعدني ألا تصادر أي رأى .
- أعدك .
- دعني أفكر متى أعود .
- شكراً ولكن ثقي أنى أعترف أنى أخطأت .

نظر الأب إلى ابنته وقال بكل فخر :

- العجيب أن أقاربي كانوا يعايروني بأني لم أنجب ذكوراً وها أنت أفضل من عشرات الذكور .

نظرت إليه علا بكل حب وقالت بصوت هادئ :

- لولا تربيتك وحبك ورعايتك ما صرت هكذا ..
- الفضل لله ثم لك يا أبى .

واتجهت إليه وطبعت قبلة حانية على جبينه ثم قبلت يده وشعورها بالامتنان يغمرها ، فاحتضنها الأب في حنان ودعا الله أن يبارك له فيها.

[٦٥]

كان صابر يقرأ الجريدة مع أمه في حين خطفها إبراهيم من يده وأخذ يقرأ بانتباه كامل ، فقالت الأم :

- أنهم يحاسبون القتلى .

بدت نظرات الارتياح على وجه إبراهيم وقال :

- لقد صار القتلى نجوماً في المجتمع .

دخل حجرته والسعادة تغمره، كان يجب أن يقتل أحد هذين الرجلين، لقد صرت نجماً، لكنه قال في نفسه: ولكني نجم لا يعرف أحد اسمي، كان اسم عامر وحيد وصورته تملأ الجرائد والمجلات وشاشات التليفزيون .

اتصل بناصر وقال له :

- أقرأت ما يكتبونه عنا ؟
- نحن نطبق القانون .

- كنت أود أن تنشر صورنا .
- إياك أن تقول هذا ثانيه وإلا أدخلنا السجن .
- ما أخبار العملية الجديدة ؟
- لم يبلغني الزعيم .
- اشتقت إلى العمل وإلى خدمة المجتمع .
- أم اشتقت إلى الانتقام من لمياء ؟
- اشتقت إلى الاثنين معاً .

دخلت الست هنية والدة إبراهيم وقالت له .

- تذكرت عندما قلت لي أن نهاية عامر وحيد قد اقتربت .

ارتبك إبراهيم إلا أنه تماسك وقال :

- هذا أمر متوقع .
- هل تعلم الغيب ؟
- أبداً لا يعلم الغيب إلا الله ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما مسني السوء .

نظرت في عينيه وقالت :

- إني خائفة عليك .
- لا تقلقي يا أمي أنا بخير .

خرجت الأم من حجرته، كاد أن يطير أو يرقص فرحاً. سمع طرقات على الباب. إنه يخشى أن تقرأ أمه نظرات عينيه أو تكتشف الحقيقة . أنها تعلم كل شيء عنه فهل تخترق نظراتها صدره وتعلم ما يخفيه من دقائق بداخله ؟

زالت مخاوفه عندما دخلت نور وقالت له بعين يملؤها الحب :

- هل أزعجك ؟

رد عليها بالنفي فقالت له :

- هل تشرح لي درسًا في الحساب.

- لا إني مشغول .
- مشغول بلمياء ؟
- من ؟
- التي زارتك هنا مع زميلتها .
- لا .
- هل تحبها ؟
- لا .

إنها تؤكد له أنه يحبها ، تذكر كلمات صابر عندما كان يتهمه بحب لمياء، ولكنها الحقيقة. إنه يمكن أن يعترف الآن أنه يحبها ولكن لماذا تتركه ، لماذا تخلت عنه عندما علمت حالته وفقره والفارق الكبير بين طبقته التي ينتمي إليها وطبقتها .

لم يرد عليها ثانية ولكنها أخذت تبكى .

كانت تبكى لأنها تحبه

ربت على ظهرها وقال لها .

- لماذا تبكين ؟
- لأنك لم تفهم .
- أفهم .. ماذا أفهم ؟
- إني .

لم تستطع نور أن تكمل كلمة "أحبك" ولكنه أحس بهذه الكلمة، خرجت الفتاة باكية من حجرة إبراهيم في حين كان صابر أيضا يبكى، أغلق إبراهيم الباب خلفها واتجه بظهره نحو الباب ثم بكى قائلاً :

- وأنا أيضاً أحب لمياء .

علا بكاؤه معلنا عن اعترافه بحب لمياء، وكان الحب يتصارع مع رغبته في الانتقام منها ومن أبيها ومن طبقتها، اشتعل هذا الصراع داخله من جديد فشعر بمدى حرارة دموع عينيه التي كانت تسيل على خديه .

[٦٦]

ألصق سيد عثمان علياء في ركن الحجرة وانهال عليها تقبيلا، ولكنها قالت له :

- وإلى متى نظل هكذا ؟

احتضنها بعنف فأزاحته بعيداً وقالت :

- متى تنتهي علاقتنا ؟
- لا أريدها أن تنتهي .
- وما الفائدة منها ؟
- إني أحبك .
- وماذا بعد الحب ؟
- نظل هكذا .
- لا يعجبني هذا الحال .

كانت تريد أن تتخلص منه حتى تنسى الماضي الأليم الذي ساهمت في تشكيله بقتل زوجها . قال سيد عثمان :

- هل تريدينني أن أتزوجك ؟
- ردت عليه في اندفاع .
- لا .

عادت إلى كبريائها فلم تشأ أن تتزوج من الرعاع . نظر إليها في غضب وقال :

- ولماذا لا نتزوج ؟ لأني قاتل ؟ أنا قاتل مأجور وأنت قاتلة لزوجك بالشراكة .
- اسكت أرجوك .
- لن أسكت . لقد قررت أن أتزوجك .
- ومن أنت حتى تقرر ؟
- أنا سيد عثمان .

- أخرج من هنا .

- لن أخرج، اطلبي لي البوليس .

كان صوتهما قد ارتفع لدرجة أن راشد سمع كل الحوار الذي دار بينهما. وسمع الصفعة التي وقعت على خد أمه، كان يود أن يدخل ويضرب الرجل ولكنه بكى، سمع سيد صوتًا خارج الباب فقام وفتح الباب فجأة فوجد الطفل فأمسك بخناقة وكاد أن يقتله، خلصته أمه من يد سيد ولكن راشد قال :

- سمعت كل شيء وسأبلغ البوليس .

تطايرت شرارات الغضب من عيني سيد فأخرج المسدس من جيبه وأطلق رصاصة أصابت كتف راشد فصرخت الأم ولكن سيد قال:

- المرة القادمة ستكون الطلقة في قلبه . زواجنا الخميس القادم . فاهمة ؟! أنا الذي أقرر .

هزت علياء رأسها بالموافقة في حين تكوم راشد على الأرض غارقاً في دمائه وغاب عن الوعي تمامًا .

[٦٧]

شرفتنا يا أستاذ نصيف

قالتها نادية وهى تتساءل عن سر هذه الزيارة لقد ارتاحت عندما لم تجد دبلة في يده ولكنها لم تكن راغبة في أن تسأله هل فسخ خطبته أم لا ، قالت له :

- ما أخبارك وما أخبار خطيبتك ؟

- من ؟

- ابنة خالتك .

- ليس لي نصيب فيها .

تنفست الصعداء ولكنه قال لها .

- أريدك في أمر هام.

خمنت أنه يريد العودة إليها ولكنه قال :

- هل تقبلين أن تعطيني درسًا خاصًا؟

ألجمتها المفاجأة ولكنه استمر يقول :

- أريد أن أتعلم العزف على البيانو .

قالت بلا تردد :

نعم !! تريدني أن أعلمك كيف تعزف على البيانو؟!

- نعم وسأعطيك أي مبلغ تطلبينه .

كان قد علم بخبر مقتل فريد ، نظر إليها نظرات لم تفهمها فسألت:

- وهل لديك بيانو ؟
- نعم ، اشتريته .
- لماذا ؟
- لتعلميننى عليه في شقتي الجديدة .
- وهل اشتريت شقة جديدة .

قام وخطف منها قبلة على حين غرة منها ثم قال :

نعم اشتريتها لنتزوج فيها .

- تخليت عن بخللك إذا ؟
- طلقته ثلاثا .
- أنا إذا الزوجة الثانية بعد أن طلقت بخلك ؟
- لا . أنت زوجتي وحبيبتي الأولى والأخيرة .

أتاها الفراش ومعه القهوة وهو يرتعد، صرخت فيه نادية قائلة :

ضع القهوة أمام خطيبي نصيف بيه.

رشف منها نصيف رشفة ثم قال :

- غير هذه القهوة . أريدها سكر زيادة.

خرج الفراش وتوجهت نادية إلى نصيف قائلة :

- سكر زيادة ؟

- نعم ستصير حياتنا سكر زيادة بعد زواجنا .
- ولن تتزوج البخل ثانية.
- لا سأتزوجك أنت يا روحي .

أتاه الفراش بالقهوة إلا أنه كان قد أمسك بيد نادية وقال للفراش :

- اشربها أنت .

ثم أخرج عشرة جنيهات من جيبه وأعطاها للفراش ونادية تتعجب من التغير الذي طرأ على حياة نصيف ، شعرت بحبه واتجها إلى والدتها ..

[٦٨]

كانت الجريدة التي يرأس تحريرها والد لمياء تتبنى وجهة النظر التي تصف العصابة بالإجرام وتطلق عليهم ألقاب السفاحين والقتلة الذين يجب ضبطهم وإعدامهم في ميدان عام ليكونوا عبرة لغيرهم .

كانت خطة سيد عثمان استدراج والد لمياء إلى مكان بعيد منعزل وقتله . استحسن حسين الفكرة إلا أن ناصر أخبرهم بخطأ الفكرة لأنه سيأخذ احتياطه ، وافق إبراهيم على رأى ناصر وقال :

- اسمح لي يا زعيم نعمل نفس الخطة التي نفذناها مع عامر وحيد.

كان إبراهيم يود أن ينتقم من لمياء ويقتل والدها أمام عينيها لقد تحول حبه لها إلى كراهية تشتعل كلما تذكر أنها تركته لمجرد أن عرفت أنه فقير وأنه يعيش في حارة شعبية رد سيد قائلاً .

- قد يتم القبض علينا إذا اتبعنا نفس الأسلوب .

رد إبراهيم قائلاً :

- لا تقلق فنحن نصدر جريدة في الكلية وسأبلغ لمياء أنى سأقابل والدها في بيتهم ومعي زملائي الذين يساعدوني في عمل تحقيق عن القتلة السفاحين .

رحب الجميع بالفكرة .

وتم تنفيذها .

نظر إبراهيم إلى لمياء وقال :

- أنت حقيرة وتافهة ولا يهمك إلا المنظر.
- صاح والدها قائلاً في غضب:
- هل تشتمنا في بيتنا ؟
- نعم .
- اخرج من هنا

أخرج سيد عثمان مسدسه وأشار إليه فجلس والد لمياء وقال :

- أنتم إذاً أفراد العصابة ؟

رد سيد عثمان :

- نعم .

أصاب الرعب لمياء فسقطت على الأرض، صفعها إبراهيم قائلاً:

- أفيقى .. هل تعتقدين أنك أفضل منى لأنك أكثر ثراء منى ؟ لماذا تخليت عن حبي ؟

اتجه حسين نحوها وأخلعها ملابسها. كاد أبوها أن يجن فصاح بهم.

- اقتلوني أولاً ثم اقتلوها .. أرجوكم.

صرخ إبراهيم في وجهه.

- هل يؤلمك هذا المشهد؟ ألم يؤلمك مشهد الفقراء والمساكين في المجتمع؟ لماذا لم تكتب عنهم بقلمك ؟ لماذا تجنبت الحديث عنهم كأنهم مرض؟ تجاهلتموهم؟ كان بإمكان قلمك أن يكون نصيراً للفقراء ومنبراً لنصرة الضعفاء. أفردت الصفحات للراقصات والمغنيات وتركت العلماء ولم تسلط الضوء إلا على الفنانين واللاعبين .

فتح والد لمياء فمه ليتكلم، ففزع إبراهيم وصفعه قائلاً .

- اسكت ولا تتكلم هذا وقتنا للكلام. هل تحدثت في مقالاتك عن البطالة وعن الفقر أم كنت بوقا للسلطة تردد ما يقولونه ؟ كانت ابنتك

تحبني ولما علمت أنني فقير تركتني، غرست فيها حب المال والسلطة. أليس هذا صحيحاً ؟! إني أكرهك وأكرهها .

دمعت عين لمياء فقالت:

- الرحمة.

صرخ إبراهيم وقال :

- الرحمة ؟ وهل رحمتني ؟ لقد اعترفت لي بالحب أكثر من مرة وتركتني عندما عرفت أني فقير . هل الفقر ذنب أو عيب ؟
- بصق إبراهيم في وجه أبيها وفى وجهها وقال :لشد ما أكرهكم .
- قال رئيس التحرير برجاء واضح :
- الجمهور هو الذي يطلب التسلية والترفيه.
- اخرس .. لقد أفسدتم أذواق الناس ونشرتم صور العاريات أود أن أقتلك ألف مرة
- وابنتي ؟!
- أود أن أقتلها ألف مرة .

سالت الدماء على الأرض مدرارًا، ونهش إبراهيم مع أصحابه جسد لمياء، لم تذرف عينه دمعة واحدة، احتضنها أخيراً ثم بصق على وجهها وخرجوا جميعاً تاركين قتيلين وراءهما هذه المرة .

[٦٩]

كان شعور الأستاذ راضى وزوجته بالفرحة يغمرهما وينسيهما الآلام التي قد يتعرضا لها في حياتهما، لقد توثقت عرى الحب بينهما فأثمرت إنجاب توأم في غاية الجمال، وأصر راضى على أن يسميهما الحسن والحسين تيمنا بحفيدي رسول الله ﷺ ، إلا أنه ذرف الدموع سيلا عندما علم أن زميلة ذكى مات أثر أزمة قلبية ٠

أما مس نادية فكانت تعوم في سعادة غامرة ، ستشطب لقب عانس من حياتها ، لقد تغير خطيبها نصيف تماما، لقد تحول إلى النقيض بل إنه صار ينفق ببذخ من لا يخشى الفقر وكان يتساءل عما أصابه من قبل فجعل منه عبداً للمال، وإن كان يضيق أحيانا عندما يذكر أن نادية

خطبت لفريد بيه، فترد عليه بأنه هو أيضًا قد خطب ابنة خالته، واحدة بواحدة، ولكنه كان يقول البادي أظلم وأنت التي خطبت أولاً، وسرعان ما ينقشع جو العتاب حتى يسود جو ترفرف عليه أجنحة الحب .

ولكن الحياة كالطائر ذي الجناحين، قد يكون الحب والخير جناحاً واحد ولا يمكن للحياة أن تستمر على حالة واحدة كما لا يمكن للطائر أن يطير بجناح واحد تزوج عادل من سالي تلك الفتاة اللعوب وحولت حياته إلى جحيم لا يطاق وليته هو فقط، لقد كانت كما يقول عادل تحول حياة أطفاله إلى جحيم لا يطاق، كانت تذيقهم صنوف العذاب ألوانا، وعندما قرر أن يطلقها كانت قد حملت، فقرر أن يبقيها ويتحمل معها أصعب أيام حياته ولم يكن يلطف من حياته سوى تذكره لوجه تغريد وابتسامتها الحالمة، وسرعان ما تصدمه سالي بصخرة الواقع ولكنه يتحمل من أجل أبنائه، وكان يتذكر حنان زوجته الراحلة وحبها في أيامها الأخيرة .

تزوجت علياء سيد عثمان وكان آمرا ناهياً في البيت، فلقد حطم أنف كبريائها، فصارت تجلس مع الخدم والرعاع كما كانت تطلق عليهم، صارت منكسرة بشكل يرضى غرور سيد عثمان، ولكن راشد كان قد تغير تمامًا فلقد صار يلعب مع زملائه في الفصل، كان أبغض شخص له هو سيد عثمان، كان لا يطيق أن يراه، ولقد أبلغ الشرطة فألقت القبض عليه ولكنه لم يعترف على شركائه مضحياً بنفسه .

وأثمرت مطابع الجرائد عشرات المقالات والتحقيقات المطالبة برأسه، إلا أن علا عامر كتبت مقالاً ناريا تؤكد فيه أن سيد عثمان لا يمكن أن يرتكب هذه الجرائم بمفرده وأنه من المؤكد وجود شركاء له ويحب البحث عنهم. حاول ناصر وحسين وإبراهيم قتلها ذات مرة في طريق عودتها من الجريدة، إلا أنها واصلت مقالاتها وتحدياتها، ومجدها لقد كانت هي السابقة دائماً بخطوات في التفكير والتحليل على الرغم من اكتشافها إصابتها بورم خبيث في المخ فكانت تنتظر نهايتها وكان أبوها يبلغها دائماً مواسياً إياها بأن الأعمار بيد الله .

واشتعلت نار الخلافات من جديد بين مرزوق الجد وزوجته جمالات التي تريد أن تترك الحارة وأن تبالغ في التزين فطلقها وعادت سيرتها الأولى وتركت البيت وهربت وربيت نور مع إبراهيم وصابر، واكتمل المجمع الإسلامي الذي بنته جمالات ولم تمر شهور إلا ووقع

زلزال كبير فسقط هذا المجمع، وكان مرزوق كلما مر بأنقاضه يقرأ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ .

أما إبراهيم فكان شعوره بالندم يقتله، كان يعتزل أسرته ويقبع أياماً داخل حجرته لا يكلم أحداً ويبكي بحرقة، كانت دموعه تحرقه، كانت أمه تحتضنه وتتشح بالسواد وكأنها على علم بأنها ستكون ثكلى لفقد ولدها ولقد ذهب ذات مرة إلى الصحفية علا عامر واعترف لها، رفقت لحاله وطلبت منه أن يهرب إلا أنه أبى وسلم نفسه طواعية وانتظر أن يكتمل قدره المحتوم. صرخت الأم صرخة مزقت الكون عندما علمت نبأ الحكم على ولدها إبراهيم وصار سوادها وصمتها سمة ملازمة لها، كانت تعد الأيام التي لا تمر حتى أنها صارت لا يعرفها أحد وأثر الدمع صار علامة في وجهها رغم مواساة زوجها وحماها وصارت تأمل في صابر الخير، ولكن لم تمر شهور حتى لقيت ربها.

وتستمر الحياة ، يصحو الجد مبكراً ويوقظ صابر ونور للصلاة ويراجع لهما الدروس، وكثيراً ما يستمعان إليه وهو يتلو القرآن بصوت عذب وكانت آياته تصب في نفوسهما وهو يتلو:

"ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون" ثم يودعهما وهما يذهبان إلى المدرسة وكلاهما مفعم بالأمل .

[٧٠]

- صابر متعب مرزوق .

قالها الأستاذ عادل بكل فخر، ولقد كان صابر الأول على فصله، كما كان معجباً بذكائه ونبوغه وواصل كلامه قائلاً :

- الدرجة النهائية . ممتاز.

كانت أعين الطلاب تنظر إلى صابر بكل فخر وإعزاز، ولم تكن هناك نظرات حقد وشماته تنطلق من عيني راشد، بل صار ينظر إليه بكل حب وفخر ولأول مرة تتغير النظرات في عيني نور تجاه صابر أنها تلمحه لأول مرة، فترى في عينيه نفس نظرات إبراهيم، ولكن لقد انتهى الماضي، فلننظر إلى الحاضر وإلى المستقبل، نظرت إليه وابتسمت وفجأة دخل الفراش قائلاً :

أخت علياء هانم تريد أن توصل راشد إلى الفيلا .

أشاح الأستاذ عادل بيده وقال في غضب :

- أبلغها أنه لن يغادر قبل نهاية اليوم الدراسي، وإذا أرادت أن تنتظره فلتنتظر.

استأذن صابر المدرس في أن يتكلم،فتوجه راشد إلى الفراش وقال:

- أبلغها أنى لن أذهب معها إلى الفيلا ، سأذاكر مع صابر اليوم .

خرج عادل من فصله وألقى ببصره على جريدة كانت بيده فقرأ خبر سقوط صدام حسين في يد قوات الأمريكان فردد في نفسه قائلاً: "نهاية عصر وبداية عصر جديد. فليسقط الماضي".

كان صابر يجرى مختالاً وفرحاً، يمسك راشد بيده في ود شديد، كانا يتجهان ناحية بيت صابر. تبعتهما نور :

كانت تنظر إلى صابر في ود وهو يسبقها مع راشد، كانت تنظر إليه كأنها تنظر إلى مستقبل لا تدركه، أراد أن يحدثها ولكنها قالت :

- انظر أمامك.

وجدوا الجد في الشرفة يلوح لهم بيده ويستعد لمراجعة درس جديد معهم. وبعد انتهاء الجد من الدرس أخذ يتلو بصوت عذب ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ارتفع صوت المؤذن معلنا دخول وقت صلاة العصر. هرع الجد مع الولدين إلى المسجد، وقالت نور:

- عندما تعودون أكون قد جهزت لكم الغداء.

انصرفوا ونظرات نور تودعهم وإن كانت تخص صابر بنظرات مميزة تختلف عن نظراتها لراشد وللجد، فردت سجادة الصلاة وبدأت صلاة العصر وكانت زقزقات العصافير تبتهل إلى الله وتتبتل إليه وكأنها في صلاة دائمة مستمرة.

الدوحة. ٢٠٠٦/٥/١٧